يطبع لأول مرة بمصر

أسرار الصلاة

تصنيف الإمام العلامة

شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

ويليه

الذل والانكسار للعزيز الجبار
المشهور بالخشوع في الصلاة

تأليف

الإمام زين الدين بن أحمد عبد الرحمن

«ابن رجب الحنبلي»

عناية وتحقيق وتعليق

أبي عبيدة الوليد بن محمد بن سلامة بن عبد الغني

دار المسلم



أسرار الصلاة

ويليه

الخشوع في الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ١٧٥٢٧ / ٢٠٠٧

مكتبة ابن الإسلام:

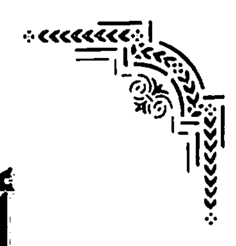
٢٠ شارع سليم الأول - أمام مدرسة الجمهورية - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٠٢/٢٢٥٩٥٨٩٦ - جوال: ٠١٠/٦٩١٥٢٦٨

مكتبة المسلم:

١٧ شارع العزيز بالله - أمام مسجد العزيز بالله - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٠١٢/١١٨٢٠٥٧



أسرار الصلاة

للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب

المعروف بابن قيِّم الجوزية

(٦٩١هـ - ٧٥١هـ)

ويليه

الذل والانكسار للعزيز الجبار

المَشهور بـ: « الخُشوع في الصَّلاة »

للإمام زين الدِّين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن

الشهير بابن رجب الحنبلي

(٧٣٦هـ - ٧٩٥هـ)

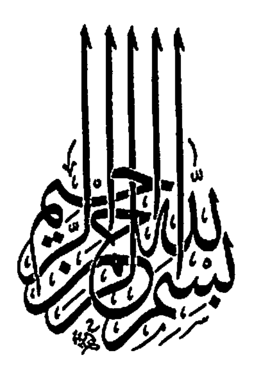
بعناية وتحقيق وتعليق

أبي عبيدة الوليد بن محمد بن سلامة بن عبد الغني

الناشر

مكتبة ابن الإسلام

مكتبة المُسْلم


بسم الله الرحمن الرحيم





مقدمة التحقيق



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق



الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفَّار، مُكوِّر النهار على الليل ومُكوِّر الليل على النهار، تذكرة لأولي القلوب والأبصار، وتبصرةً لذوي الألباب والاعتبار.

الذي أيقظ من شاء من خلقه فزهَّدهم في هذه الدار، ووفَّقهم للدَّأب في طاعته والتأهُّب والتَّزوُّد لدار القرار، والحذر مما يُسخطه ويُغضبه ويُوجب دار البوار، والمحافظة على ذلك مع تغاير الأحوال والأطوار، وتعاقب الليل والنهار.

وكتب سبحانه الشقاء على من شاء من خلقه فجعل منهم الكفار والفجَّار، وختم على قلوبهم وأسماعهم وأعمى منهم الأبصار، فهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ومثواهم النار، وربُّك يخلق ما يشاء ويختار، فاعتبروا يا أولي القلوب والأبصار.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُنجي صاحبها من النار، وتُدخله جنةَ العزيز الغفَّار، وتُلحقه بمنازل الصالحين والأبرار.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المصطفى المختار، خير من مشى على هذه الأرض وسار، وخير من وحَّد الله تعالى وعبده بالليل وبالنهار، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه الأبرار الأخيار الأطهار.

ومن تبعهم بإحسان إلى يوم تشخص فيه القلوب والأبصار، بين يدي الملك الجبَّار.

أما بعد:

فهذه قِلادةٌ دُرِّيَّةٌ، وسبيكةٌ عسجديَّة[١]، جوهرةٌ نفيسةٌ، ولؤلؤةٌ ثمينةٌ، تَضُوعُ مِسْكًا[٢]، وتَفوحُ عَنبرًا[٣]، جادت بِها يراعةُ[٤] الإمام الْهُمام، علم الأعلام، شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية -رحمه الله-، وتفطرت عنها قريحته[٥].

وهي رسالة مستقلة، ألَّفها ابتداءً، وأولاها اهتمامًا واعتناءً، ليست مُستلَّةً[٦] من كتاب من كتبه الكبيرة مثل «زاد المعاد»، أو «مدارج السالكين»، أو «إغاثة اللهفان» أو غيرها من كتبه، وإنما هي رسالة مستقلة بذاتِها.

موضوع الرسالة:

وهذه الرسالة صنَّفها وألَّفها الإمام ابن القيم -رحمه الله- للمقارنة والموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن.

أو بمعنى آخر للمقارنة بين ما يجده العبد من اللذة الحقيقية والأنس والسرور والحبور في الصلاة وقراءة القرآن، وبين اللذة الوهمية في سماع الغناء وآلات المعازف والطرب واللهو المحرم، وأن كلاًّ منهما مباين للآخر من كل وجه، وأنه كلما قوي ذوق أحدهما وسلطانه ضعف ذوق الآخر وسلطانه.

---

(١) العسجد: هو الذهب. وانظر: «مختار الصحاح» مادة (عسجد).

(٢) يُقال: ضاع المسك وتضوَّع وتضيَّع؛ أي: تحرَّك فانتشرت رائحته.

(٣) يُقال: فاح الطيب يفوح فوحًا؛ أي: انتشرت رائحته.

(٤) اليراعة: هي القصبة التي ينفخُ فيها الراعي.

(٥) يُقال: لفلان قريحة جيدة، يُراد استنباط العلم بجودة الطبع.

(٦) السَّلُّ: انتزاع الشيء وإخراجه في رفقٍ. وانظر: لسان العرب مادة (سلل).

ابتدأ -رحمه الله- الـرسالة بالكلام عن عظيم مِنَّة الله عـلى عباده في أن شرع لهم الصـلاة التي هي قـرة عيون المحبين، ولـذة أرواح العـابدين الخاشعين، وهي المأدبة التي يُدعى إليها العبد في يومه وليلته خمس مرات؛ فيصـدر عنها وقـد شَبِع وارتوى، وشُفي واكتسى، فالعبد يُصاب بالقحط والجوع والجدب والظمأ والعري والسقم، ولا يُزال ذلك عنه كله إلا بذكر الله الذي يُحيي موات هذه القلوب، فلذلك كانت الدعوة إلى الصلاة عدة مرات في اليوم والليلة، فالغفلة عن الله هي قحط القلوب، وذكر الله غيثها، ولا حياة للقلب إلا في توحـيد الله ومعرفته، والإقبال عليه، وامتثال أوامره، والكف والبعد عن محارمه.

ثم تكلم -رحمه الله- عن أقسام الناس في استعمال جوارحهم، وقسَّمهم إلى ثلاثة أقسام، قسم استعمل جوارحه فيما خُلقت له وأُريد منها، فهو الفائز الرابح، وقسمٌ استعمل جوارحه فيما لم تُخلق له، بل حبسها على المعاصي والمخالفات، والعكوف على المحرمات والشهوات والمُلهيات، فهو الذي خاب سعيه، وخسرت تجارته، وقسمٌ ثالث عطَّل جوارحه، وأماتَها بالبطالة والجهالة، فلا هو في شغل الدنيا، ولا في سعي الآخرة، بل هو كَلٌّ على الدنيا والدين، فهو أيضًا خاسر بائر.

ثم ضرب لكل واحد من هؤلاء الثلاثة مثالاً، وسمَّى القسم الأول بأهل اليقظة، والقسمَ الثاني بأهل الغفلة، والقسم الثالث بأهل الخيانة.

ثم بدأ يتكلم عـن أسرار الصلاة ومـا فيها من حِكَم جـليلة، وأن سر الصـلاة ولبَّها ومقصودها الأعظم هو إقبال القلب فيها على الله، وحضوره بكليته بين يديـه، فإذا خلت الصلاة من ذلك فقد فات العبد المقصود الأعظم منهـا.

ثم بدأ يتكلم عن أسرار الوضوء وحِكمه، وأن الله شرعه قبل الصلاة، لكي يتطهر العبد من الأوساخ، والوضوء له ظاهر وهو طهارة البدن وأعضاء العبادة من الأوساخ الظاهرة، وباطن وهو طهارة القلب من أوساخ الذنوب والمعاصي وأدرانه بالتوبة، ثم شرع الله للعبد أن يتشهد بعد الوضوء؛ لأنه بالشهادة يتطهر من الشرك، وبالتوبة يتطهر من الذنوب، وبالماء يتطهر من الأوساخ الظاهرة، فيدخل الصلاة مكتمل الطهارة.

ثم شرع -رحمه الله- في الكلام عن الأسرار والحكم التي في مشروعية الذهاب إلى المسجد، فالعبد في حال غفلته كالآبق من ربه وسيده، قد عطَّل جوارحه وقلبه عمَّا خُلق من أجله، فإذا جاء إليه فقد رجع من إباقه، فإذا وقف بين يديه موقف العبودية فقد استدعى عطف ربه ومولاه بعد الإعراض عنه.

ثم تكلم عن الحكمة من استقبال القبلة، ولماذا أمر العبد بأن يستقبل البيت الحرام، ثم تكلم عن أسرار افتتاح الصلاة بالتكبير، وعن أسرار دعاء الاستفتاح، والحكمة من الاستعاذة قبل القراءة، وعن الحال التي ينبغي للعبد أن يكون عليها حال قراءته للقرآن، ثم تكلم عن أسرار الفاتحة، وما فيها من حكم، ولماذا شُرع افتتاح كل ركعة بها، في كلام جليل عظيم رائق لا تكاد تجده لغيره -رحمه الله-.

ثم تكلم -رحمه الله- عن أسرار رفع اليدين عند الركوع، وأسرار التكبير عند الانتقال، وأسرار الركوع، وأسرار الحمد بعد الرفع من الركوع، وأسرار السجود، وأسرار الجلوس بين السجدتين، والحكمة من تكرار السجود، وأسرار الجلوس للتشهد والتحيات، وأسرار التشهد والسلام على الأنبياء والصالحين، كلُّ ذلك وغيره بأسلوب رائع يأسر القلوب، ويجلب لها الخشوع والخشية من ربِّها علاَّم الغيوب.

ثم عقد فصلاً يتكلم فيه عن سر الصلاة وروحها ولبِّها، وهو إقبال العبد على الله بكليته فيها، ثم تكلم عن منازل الإقبال على الله في الصلاة، وعن كيفية الإقبال على الله في كل جزء من أجزاء الصلاة، ثم تكلم عن ثمرات العبادات، وأن لكل عبادة ثمرة، وثمرة الصلاة هي إقبال العبد على الله، وإقبال الله على العبد.

ثم عقد -رحمه الله- فصلاً في الكلام عن الفرق بين أهل السماع وأهل الصلاة، والمقارنة بينهما، وتفاوت ما يجده كلا الفريقين من اللذة والسرور.

ثم عقد فصلاً آخر للكلام عن الفرق بين ذوق المتقدمين والمتأخرين، وعقد مقارنة بين الصحابة وغيرهم.

ثم عقد فصلاً أخيرًا يتكلم فيه عن نكتة خفية من نكت السماع المحرَّم، وعقوبة عاجلة في الدنيا، ألا وهي أنه بعد انقضائه يجد السامع قبضًا على قلبه، ووحشةً، ويُحس بالبعد والانقطاع والظلمة، ولهذا كان بعض الصادقين إذا فارق السماع بادر إلى تجديد التوبة والاستغفار، وأخذ في أسباب التداوي التي يُدفع بها موجب أسباب القبض والوحشة والبُعد.

ثم قسَّم الآنية إلى ثلاثة أقسام: نظيف، ونجس، ومختلط.

والشرابات ثلاثة: طاهر، ونجس، وممزوج.

والقلوب ثلاثة: صحيح سليم، وسقيم مريض، وقلب فيه مادتان إيمان ونفاق.

ثم تكلَّم عن المُحرَّمات في الشريعة، وأنها قسمان، قسمٌ حُرِّم لذاته، وقسمٌ حُرِّم لما يُفضي إليه.

ثم ختم رسالته -رحمه الله- بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ كما ابتدأها -رحمه الله-.

والحق يُقال أنَّها رسالةٌ ماتعةٌ رائعةٌ رائقةٌ جليلةٌ عظيمةٌ، فهي على صغرها ووجازتها لا يكاد يقرأها أحدٌ إلا ويدخل في قلبه شيء كبيرٌ وعظيمٌ من تعظيم الله وإجلاله، والإقبال عليه، والخشوع بين يديه، ومعرفة أسرار وحكم الصلاة، بل معرفة أسرار وحِكَمِ كل حركة وسكنة فيها.

فجزى الله مؤلفها الإمام ابن القيم خير الجزاء على ما قدَّم ونصح لهذه الأمة، وعرَّف بعظيم منْزلة هذا الركن العظيم من أركان الإسلام، ألا وهو الصلاة، وأنزله منْزلته اللائقة به في دين الله.

فينبغي لكل عابدٍ ومُصلٍّي أن يُقبل على قراءة هذه الرسالة حتى يصل إلى مراد الله من هذه العبادة التي شرعها سبحانه.

❊ ❊ ❊

توثيق الرسالة

وقد اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على النسخة المتقنة التي قام عليها الأستاذ إياد بن عبد اللطيف بن إبراهيم القيسي، وهذه النسخة من مطبوعات دار ابن حزم، وهي تُطبع لأول مرة على ثلاث نسخ خطية.

وقد بذل فيها المحقق -حفظه الله- جهدًا جهيدًا لكي تخرج الرسالة كما أراد مؤلفها الإمام ابن القيم -رحمه الله-، فجزاهما الله خير الجزاء على ما قدَّما وبذلا.

* وقد برهن المحقق على صحة نسبة هذه الرسالة لابن القيم بأشياء:

١) إحالته إلى كتاب «مدارج السالكين» وقد سمَّاه «مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

وكذا إحالته إلى كتاب «زاد المعاد» حينما قال: «... كما ذكرناه في هديه ﷺ».

٢) نقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-.

٣) أسلوبه في هذه الرسالة هو أسلوبه في بقية مؤلفاته.

٤) في الرسالة عبارات كاملة استخدمها ابن القيم في بقية مؤلفاته.

عملي في الرسالة

أولاً: قمت بمراجعة الرسالة بنفسي وضبط ما أشكل من كلماتها، وتصحيح ما وقع فيها من أخطاء لغوية، وبيان معاني الكلمات الغريبة التي اشتملت عليها.

ثانيًا: خرَّجت جميع أحاديثها وآثارها، فما كان منها في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما أو إلَىٰ أحدهما، وفي ذلك كفاية لكي يعرف القارئ الكريم منْزلة الحديث من حيث الصحة، حيث إنَّ أحاديث الصحيحين مما اتفقت الأمة علىٰ صحتها.

أما ما كان خارج الصحيحين فقد اجتهدت قدر طاقتي في تخريجه وتحقيقه والحكم عليه من حيث الصحة أو الضعف.

ثالثًا: عزوت الأشعار إلَىٰ قائليها ما أمكنني ذلك، وما أعرضت عن عزوه فهو مما لم أقف عليه.

رابعًا: وضعت عناوين تُعرب وتُفصح عن موضوعات الرسالة، وتُسهل للقارئ الكريم الاستفادة من مادتها، فكل العناوين التي في هذه الرسالة، والتي وُضعت بين معكوفين، فهي من وضعي، وليست من كلام ابن القيم -رحمه الله-.

خامسًا: قمت بعمل ترجمة للإمام ابن القيم -رحمه الله-.

سادسًا: صنعت فهارس علمية للرسالة: فهرسًا للأحاديث، وفهرسًا للآثار، وفهرسًا للموضوعات.

وأخيرًا فهذا جهد الْمُقل، أضعه بين يدي القراء الكرام، راجيًا منهم دعوة صالحة بظهر الغيب أن يتجاوز الله عنّي بِمَنّه وكرمه.

وما أقدمتُ على هذا العمل إلا رغبةً في الخير، ونشرًا للعلم، خاصةً وأنَّ هذه الرسالة أصبح وجودها عزيزًا بين يدي القراء الكرام وطلبة العلم الأفاضل، ثم إنَّ موضوعها من الأهمية بمكان، فلا ينبغي أن يخلو منها بيتٌ مسلمٌ، بل ينبغي أن يُقبل على قراءتها كل عبد صالح يرجو الله والدار الآخرة، ويطمع في بلوغ منازل أهل العرفان والإحسان.

ولستُ والله أهلاً للإقدام على هذا العمل، ولكنه تَطَفُّل مني على مائدة العلم وأهله راجيًا من الله أن يحشرني في زمرتهم، فأرجو أن أكون بصنيعي هذا قد أحسنتُ، ونلتُ أجرًا على ما فعلتُ، فإن أصبتُ ووُفِّقتُ في ذلك، فمن الله -عَزَّ وجَلَّ-، وإن قصَّرتُ وأخطأتُ -وهذا هو الظن بي وبأمثالي- فمن نفسي ومن الشيطان، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي.

والله تعالى أسأل، وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى أتوسل، أن يتقبل مني صالح الأعمال، وأن يتجاوز عن قبيح الأقوال والخصال، وأن ينفع بِهذه الرسالة كاتبها وقارئها ومحققها والناظر فيها في الدنيا والآخرة، إنه سميع قريب، وهو نعم المولى ونعم النصير.

وكتبه

أبو عبيدة

الوليد بن محمد بن سلامة بن عبد الغني

غفر الله له وعفا عنه بمنّه وكرمه

ترجمة الإمام ابن القيم

رحمه الله

اسمُه ونسبه:

هو الإمام، العلاَّمة، الحبرُ، الفهَّامة، شيخُ الإسلام، وعلمُ الأعلام، ومفتي الأنام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي الزُّرعي الدِّمشقي الحنبلي.

والزُّرعي: نسبة إلى زرع أو زرعة قرية من حوران بالشام وتُسمى اليوم إزرع.

شُهرته:

اشتهر هذا الإمام بين العلماء بـ(ابن قيم الجوزية)، ومنهم من يتجوَّز فيقول: (ابن القيِّم)، وهو الأكثر والأشهر بين المتأخرين من أهل العلم.

وسببُ هذه الشهرة أن أباه -أبا بكر بن أيوب- كان قيِّمًا على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن، فقيل له: (قيِّم الجوزية)، واشتهرت ذريته وحفدتهم من بعد بذلك، فصار الواحد منهم يُدعى بـ(ابن قيم الجوزية).

ولادته:

ولد سنة إحدى وتسعين وست مئة، في اليوم السابع من شهر صفر، في دمشق.

أسرته ونشأته:

نشأ ابن القيم في جو علمي كريم، وفي أسرة مشهورة بالفضل، معروفة بالعلم، فجدَّ في الطلب واشتغل بالتحصيل، وعُني بالعلوم المختلفة، والفنون

المتنوعة، فكان -رحمه الله تعالى- يتقلَّب في أعطاف العلم، تعلُّمًا وتعليمًا، فأبوه كما يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: «الشيخ، الصالح، العابد، الناسك، أبو بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعي الحنبلي، قيم الجوزية، كان رجلاً صالحًا، متعبِّدًا، قليل التكلف، وكان فاضلاً ...».

فابن القيم عاش في كنف والده وتتلمذ عليه، وذكرت كتب التراجم بعض أفراد أسرته أيضًا ممن كانوا يُعرفون أيضًا بالعلم، فأسرته أسرة فاضلة مشهورة بالعلم والفضل.

طلبه للعلم وثناء العلماء عليه:

الناظر في كتب الإمام ابن القيم يجد أنه كان متبحرًا متمكنًا من شتى العلوم مثل: « التوحيد، والفقه، والأصول، والحديث، والتفسير، واللغة، والنحو، والفرائض، وغيرها من العلوم ».

ومع كل ما آتاه الله من العلم، فقد كان منشغلاً أيضًا بالعبادة والتألُّه، يُضرب به المثل في الصلاح والعبادة والزهد والورع، فهو بحقٍّ عالمٌ عاملٌ، جمع بين العلم والعمل.

* يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-:

«سمع الحديث، واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين، ولما عاد شيخ الإسلام ابن تيمية من الديار المصرية في سنة (٧١٢هـ) لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهارًا، وكثرة الابتهال».

ويقول -رحمه الله-:

«وكان حسن القراءة والخُلق، كثير التودد، لا يَحسد أحدًا ولا يؤذيه، ولا

يستعيبه، ولا يَحقد علىٰ أحد، وكنتُ من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة، يطيلها جدًّا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك -رحمه الله تعالى-».

ويقول الحافظ ابن رجب -رحمه الله-:

«تفقـه في المـذهب، وبرع، وأفتىٰ، ولازم الشيخ تقي الدين ابن تيميـة، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عـارفًا في التفسير لا يُجـارىٰ فيه، وبأصول الدين وإليه فيها المنتهىٰ، والحـديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يُلحـق في ذلك، وبالفقـه وأصـوله، وبالعربية وله فيها اليـد الطولَىٰ، وعـلم الكـلام، والنحو، وغير ذلك، وكان عالمًا بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولىٰ».

ويقول -رحمه الله-:

«وكان -رحمه الله تعالَىٰ- ذا عـبادة وتهجد، وطول صلاة إلَىٰ الغـاية القصوىٰ، وتألُّه ولهج بالذكر، وشغف بالْمَحَبَّة، والإنابة، والاستغفار، والافتقار إلى الله والانكسار له، والاطِّراح بين يديه علىٰ عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك».

ويقول -رحمه الله-:

«ما رأيتُ أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان فيه، وهو ليس بمعصوم ولكن لم أر في معناه مثله».

* ويقول الشوكاني -رحمه الله-:

«برع في شتىٰ العلـوم، وفاق الأقـران، واشتهر في الآفاق، وتبـحَّر في معرفة مذاهب السلف».

وقال السيوطي -رحمه الله-:

«قد صنَّف وناظر واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين والعربية».

شيوخه:

الإمام ابن القيم كثير الاطلاع، وواسع المعرفة، ولعل من أسباب ذلك كثرة شيوخه، وتفننه في الأخذ عنهم، ولا سيما شيخه الذي استفاد منه كثيرًا، شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد لازمه حتى مات رحمه الله، فأعظم شيوخه هو:

(١) شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي.

يقول ابن رجب -رحمه الله-:

«وقد امتُحن وأوذي مرات، وحُبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفردًا عنه، ولم يُفرج عنه إلا بعد موت الشيخ».

وكانت بداية ملازمة ابن القيم لشيخه عند قدوم ابن تيمية دمشق سنة (٧١٢هـ)، واستمرت إلى سنة (٧٢٨هـ)، وهي سنة وفاة شيخه، فتكون فترة ملازمته له حوالي سبعة عشر عامًا استفاد فيها من شيخ الإسلام أيّما استفادة.

ومن شيوخ ابن القيم -رحمه الله- أيضًا:

(٢) أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة النابلسي الحنبلي الشهير بـ(الشهاب العابر)، (ت ٦٩٧هـ).

(٣) إسماعيل مجد الدين بن محمد الفراء الحراني (ت ٧٢٩هـ).

(٤) محمد شمس الدين أبو عبد الله بن أبي الفتح البلعبكي الحنبلي (ت ٧٠٩هـ).

(٥) يوسف جمال الدين، أبو الحجاج بن زكي الدين عبد الرحمن القضاعي المزي (ت ٧٤٢هـ). وغيرهم.

تلاميذه:

*** من أشهر تلاميذه -رحمه الله-:**

١) العلامة الحافظ المفسر المشهور عماد الدين إسماعيل أبو الفداء بن عمر بن كثير القرشي الشافعي (ت٧٧٤هـ).

٢) العلامة عبد الرحمن زين الدين أبو الفرج بن أحمد بن عبد الرحمن الملقب بـ(ابن رجب الحنبلي) (ت ٧٩٥هـ).

٣) العلامة محمد شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي (ت ٧٤٤هـ). وغيرهم.

* * *

تصانيفه ومؤلفاته:

كان -رحمه الله- من أبرز العلماء الذين رُزقوا حظًّا كبيرًا في التصنيف والتأليف، فاشتهرت كتبه في مختلف الأقطار، وذاعت على مر العصور والأدهار.

ولقد تتبع الشيخ الجليل بكر أبو زيد -حفظه الله- أسماء مؤلفات ابن القيم من كتب التراجم وثنايا كتبه، فبلغت (٩٦) كتابًا، ونذكر منها أشهر كتبه المطبوعة المشهورة:

١- «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية».

٢- «أحكام أهل الذمة».

٣- «أحكام المولود»، أو «تحفة المودود»، وقد قمتُ باختصاره في رسالة لطيفة، وهي مطبوعة ومتداولة بحمد الله تعالى.

٤- «إعلام الموقعين عن رب العالمين».

٥- «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان».

٦- «بدائع الفوائد».

٧- «التبيان في أقسام القرآن».

٨- «تهذيب مختصر سنن أبي داود».

٩- «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام».

١٠- «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، أو «الداء والدواء».

١١- «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح». وقد وفقني الله تعالى لاختصاره وتهذيبه وتَحقيق أحاديثه، وسمَّيته «المسك الفوَّاح المنتقى من حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، وأسأل الله أن يُيسِّر لي نشره وطباعته.

١٢- «حكم تارك الصلاة».

١٣- «الرسالة التبوكية» أو «زاد المهاجر إلى ربه».

١٤- «روضة المحبين ونزهة المشتاقين»، وقد وفَّقني الله تعالى لإخراجه على نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية، وقمت بالعناية به، وتخريج أحاديثه تخريجًا مختصرًا.

١٥- «الروح».

١٦- «زاد المعاد في هدي خير العباد».

١٧- «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل».

١٨- «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة».

١٩- «طريق الهجرتين وباب السعادتين».

٢٠- «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية».

٢١- «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين».

٢٢- «الفروسية».

٢٣- «الفوائد».

٢٤- «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»، وهي القصيدة النونية.

٢٥- «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

٢٦- «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة».

٢٧- «المنار المنيف في الصحيح والضعيف».

٢٨- «الوابل الصيب من الكلم الطيب»، وقد وفقني الله تعالى للعناية به والعمل على تحقيق أحاديثه تحقيقًا موسَّعًا، ولا زلت أعمل فيه، فأسأل الله تعالى أن يُيسر لي إكماله وإخراجه على خير حال، وأكمل وجه.

٢٩- «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى».

وفاته:

وبعد حياة حافلة بالعلم والعبادة والدعوة إلى الله تعالى ونفع المسلمين، مات الإمام ابن القيم ليلة الخميس ثالث عشر رجب، وقت أذان العشاء، سنة (٧٥١هـ)، عن ستين سنة، وصُلِّي عليه من الغد بعد صلاة الظهر بالجامع الأموي، ثم بجامع جراح، وقد ازدحم الناس على تشييع جنازته، ودُفن بدمشق بمقبرة الباب الصغير عند والدته، -رحمهما الله تعالى-.



أسرار الصلاة

تأليف

الإمام العلامة الحافظ

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب

المعروف بابن قيِّم الجوزية

(٦٩١هـ - ٧٥١هـ)



بسم الله الرحمن الرحيم

رب يَسِّر وأعن يا كريم

قال الإمام مُحمد بن أبي بكر بن قَيِّم الجوزية -رَحِمه الله تعالى-:

فصل

في الموازنة بينَ ذوق السَّماع وذوق الصَّلاة والقرآن، وبيان أنَّ أحد الذوقين مباينٌ للآخر من كل وجه، وأنَّهُ كلَّما قوي ذوق أحدهما وسلطانه ضعف ذوق الآخر وسلطانه.

[عظيم مِنَّة الله فِي شِرْعَةِ الصَّلاة]

فاعلم أنَّه لا ريب أنَّ الصلاةَ قُرَّةُ عُيونِ[1] الْمُحبين، ولذَّة أرواح الموحدين، وبُستان العابدين ولذَّة نفوس الْخَاشعين، ومحك أحوالِ الصَّادقين، وميزان أحوالِ السالكين، وهي رَحْمَةُ اللهِ الْمُهدَاة إلى عبادِهِ الْمُؤمنين.

هداهم إليها، وعرَّفهم بِهَا، وأهداها إليهم على يدِ رسولهِ الصادق الأمين، رَحْمَةً بِهم، وإكرامًا لَهُم؛ لينالوا بِهَا شَرف كرامته، والفوز بقربه لا لِحاجة منه إليهم، بل مِنَّة منه، وتفضُّلاً عليهم، وتعبَّدَ بِهَا قلوبَهم وجوارحهم جَميعًا.

وجعلَ حظَّ القلبِ العارفِ منها أكملَ الْحَظَّيْن وأعظمهما، وهو إقباله على ربِّهِ

(١) أي هي الشيء الذي تَقَرُّ به أعينهم فلا يطمحون إلى غيرها.

سُبحانه، وفرحه وتلذذه بقربه، وتنعمه بِحبه، وابتهاجه بالقيام بين يديه، وانصرافه حال القيام له بالعبودية عن الالتفات إلى غير معبودِهِ وتكميله حقوق عبوديته ظاهرًا وباطنًا حتى تقع على الوجه الذي يرضاه ربه سبحانه.

[الصلاة مأدبة يُدعى إليها العبدُ كل يوم خَمس مرات]

ولَمَّا امْتَحَنَ اللهُ سبحانه عبدهُ بالشهوةِ وأشباهها من داخل فيه وخارج عنه، اقتضت تمَام رحمته به وإحسانه إليه أن هيئ له مَأدُبة قد جَمعت من جميع الألوان والتحف والخُلَع[1] والعطايا، ودعاه إليها كل يوم خَمس مرات، وجعل في كلِّ لون من ألوان تلك المأدُبة[2]، لذّة ومنفعة ومصلحة ووقارًا لِهذا العبد، الذي قد دعاه إلى تلك المأدبة ليست في اللون الآخر، لتكمل لذة عبده في كل لون من ألوان العبودية ويُكرمه بكلِّ صنفٍ من أصْنَافِ الْكَرامةِ، ويكون كل فعل مِن أفعال تلكَ العبودية مُكَفِّرًا لِمذمومٍ كَان يكرهه بإزائه[3]، ويثيبه عليه نورًا خاصًا.

فإن الصلاة نور وقوة في قلبه وجوارحه وسعة في رزقه، ومَحبَّة في العباد له، وإنَّ الملائكة لتفرحُ وكذلك بقاع الأرض، وجبالها وأشجارها، وأنْهارها تكون له نورًا وثوابًا خاصًا يوم لقائه.

فيصدر[4] المدعو من هذه المأدبة وقد أشبعه وأرواه، وخَلَعَ عليه بِخلع القبول، وأغناه، وذلك أنَّ قلبه كَان قبل أن يأتي هذه المأدبة قَد نالَه من الْجوع

(١) الخُلَع: جمع خُلْعة وهي خيار المال، قيل سميت بذلك؛ لأنها تخلع قلب الناظر إليها.

(٢) المأدبة: كل طعام صُنع لدعوةٍ أو عرس.

(٣) أي: بمقابله.

(٤) أي: يرجع.

والقحط والْجدب والظمأ والعري والسقم ما ناله، فصدر من عنده وقد أغناه وأعطاه من الطعام والشراب واللباس والتحف ما يغنيه.

ولَمَّا كانت الْجُدُوب[١] متتابعة علىٰ القلوب، وَقَحْطُ النفوس[٢] متواليًا عليها، جَدَّد له الدعوة إلَىٰ هذه المأدبة وقتًا بعد وقت رَحْمَةً مِنْهُ به، فلا يَزالُ مُسْتَسقيًا، طالبًا إلى مَنْ بيده غيثُ القلوب، وسَقْيُها مُسْتَمْطِرًا سحائب رحمته لئلا يَيْبَسَ ما أنبتته له تلك الرَّحْمَة من نَبات الإيمان، وكلأ[٣] الإحْسَان وعُشْبه وثماره، ولئلا تَنقطع مادة النبات من الروح والقلب، فلا يزال القلب في استسقاء واستمطار هكذا دائمًا، يشكو إلى ربه جَدْبَهُ، وقَحْطَهُ، وضرورته إلى سُقيا رحمته، وغيثِ بِرِّهِ، فهذا دأبُ العبد أيَّام حياته.

[الغفلة هي قحط القلوب، وذكر الله غيثها]

فالْقَحْط الذي ينْزل بالقلب هو الغفلة، فالغفلة هي قحطُ القلوب وجدبها، وما دام العبد في ذكر الله والإقبال عليه فغيثُ الرحمة يَنْزل عليه كالمطر المتدارك، فإذا غفل نالَهُ مِنَ الْقَحْطِ بِحسبِ غفلته قلَّة وكثرة، فإذا تَمَكَّنت الغفلة منه، واستحكمت صارت أرضه خرابًا ميتةً، وسَنَته جَرداء يابسة، وحريق الشهوات يَعمل فيها من كل جانب كالسَّمائِم[٤].

فتصير أرضه بورًا[٥] بعد أن كانت مُخصبة بأنواع النبات، والثمار وغيرها، وإذا تدارك عليه غيثُ الرحمة اهتزت أرض إيمانه وأعماله وربت، وأنبتت من كلِّ زوج بَهيج.

---

(١) الجُدُوب جَمع جَدْب، والْجَدْب: ضد الخصب.
(٢) القحط: هو الجدب، يُقال: قحط المطر؛ أي: احتبس.
(٣) الكلأ: العشب رطبًا كان أو يابسًا.
(٤) السَّمائم: جَمع السَّمُوم، وهي الريح الْحَارة. وانظر «مختار الصحاح» مادة (سمم).
(٥) الأرض البور: هي التي لا تصلح للزراعة.

فإذا ناله القحط والجذب كان بِمنْزِلةِ شجرة رطوبتها وخضرتها ولينها وثمارها من الماء، فإذا مُنعت من الماء يَبُسَت عروقها وذبُلَت أغصانها، وحُبِست ثمارها، وربُّما يبست الأغصان والشجرة، فإذا مددت منها غصنًا إلى نفسك لَم يَمْتد، وَلَمْ يَنْقَد لك، وانْكَسَر، فحينئذٍ تقتضي حِكْمة قيِّم البُسْتَان[1] قَطْع تلك الشجرة وجعلَها وقودًا للنار.

[حياة القلب في توحيد الله ومعرفته]

فكذلك القلب، إنَّما يَيْبَس إذا خلا من توحيد الله وحبه ومعرفته وذكره ودعائه، فتصيبه حرارة النفس، ونار الشهوات، فتمتنع أغصان الجوارح، من الامتداد إذا مددتها، والانقياد إذا قُدْتها، فلا تصلح بعدُ هي والشجرة إلا للنار ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

فإذا كان القلب مَمطورًا بِمطر الرَّحْمة، كانت الأغصان لَيِّنَةً مُنْقَادة رطبة، فإذا مددتها إلى أمر الله انقادت معك، وأقبلت سريعة لينة وادعة، فجَنَيتَ منْهَا من ثمار العبودية ما يَحمله كل غصن من تلك الأغصان ومادتها من رطوبة القلب وريِّه، فالْمَادة تعمل عملها في القلب والجوارح.

وإذا يَبُس القلب تعطلت الأغصان من أعمال البر؛ لأن مادة القلب وحياته قد انقطعت منه فلم تنتشر في الجوارح، فتحمل كل جارحة ثمرها من العبودية.

ولله في كل جارحة من جوارح العبد عبودية تَخُصُّه، وطاعة مطلوبة منها، خُلقت لأجلها وهُيِّئت لَها.

* * *

---

(١) أي: القائم على شئون البستان.

[الناس ثلاثة أقسام في استعمال جوارحهم]

والناس بعد ذلك ثلاثة أقسام:

أحدهما: مَن استعمل تلك الجوارح فيما خُلقت له، وأُريد منها، فهذا هو الذي تاجر الله بأربح التجارة، وباع نفسه لله بأربح البيع.

والصلاة وُضعت لاستعمال الجوارح جَميعها في العبودية تبعًا لقيام القلب بِهَا وهذا رجلٌ عرفَ نعمةَ اللهِ فيما خُلق له من الجوارح وما أنْعَم عليه من الآلاء، والنعم، فقام بعبوديته ظاهرًا وباطنًا واستعملَ جوارحه في طاعة ربه، وحفظ نفسه وجوارحه عمًّا يُغضب ربه ويشينه عنده.

والثاني: مَن استعمل جوارحه فيما لَم تُخلق له، بل حبسها على الْمُخالفات والمعاصي، ولَم يطلقها، فهذا هو الذي خابَ سعيهُ، وخسرَت تجارته، وفاته رضا ربه -عَزَّ وَجَلَّ- عنه، وجزيل ثوابه، وحصل على سخطه وأليم عقابه.

والثالث: مَن عطَّل جوارحه، وأماتَها بالبطالة والجهالة، فهذا أيضًا خاسر بائر أعظم خسارة من الذي قبله، فإن العبد إنَّما خُلِقَ للعبادة والطاعة لا للبطالة.

وأبغض الخلق إلى الله العبد البطَّالُ الذي لا في شغل الدنيا ولا في سعي الآخرة.

بل هو كَلٌّ على الدنيا والدين، بل لو سعى للدنيا ولَم يسع للآخرة كان مذمومًا مَخذولاً، وكيف إذا عطَّل الأمرين؟!

وإنَّ امرءً يَسْعى لدنياه دائمًا، ويذهل عن أخراه، لا شكَّ خاسر!.

[أمثلةٌ لهؤلاء الثلاثة]

فالرجلُ الأول: كرجل أُقْطِعَ أَرْضًا واسعة، وأُعينَ على عمارتها بآلات الحرث، والبذر وأعطي ما يكفيها لسقيها وحرثها، فحرثها وهيأها للزراعة،

وبَذَرَ فيها من أنواع الغلات، وغرس فيها من أنواع الأشجار والفواكه المختلفة الألوان، ثم أحاطها بِحائطٍ، ولَم يهملها بل أقام عليها الحرس، وحصَّنها من الفساد والمفسدين، وجعل يتعاهدُهَا كل يوم فيُصْلِح ما فَسَد منه، ويَغْرس فيها عِوَض ما يَبس، وينقي دَغَلَها[١] ويقطع شوكها، ويستعين بغلَّتها على عمارتها.

والثاني: بِمنزلة رجل أخذ تلك الأرض، وجعلها مأوىً السباع والهوام، وموضعًا للجِيَفِ[٢] والأنتان، وجعلها مَعْقِلاً يأوي إليه فيها كل مفسدٍ ومُؤذٍ ولصٍّ، وأخذ ما أعين به من حراثتها وبذارها وصلاحها فصرفه وجعله معونة ومعيشة لِمَن فيها، مِنْ أهل الشرّ والفساد.

والثالث: بِمَنْزلة رجل عطلها وأهملها وأرسل الماء ضائعًا في القِفَار[٣] والصحاري فقعد مذمومًا مَحسورًا.

[أهل اليقظة وأهل الغفلة وأهل الخيانة]

فهذا مثال أهل اليقظة، وأهل الغفلة، وأهل الخيانة.

فالأول: مثال أهل اليقظة، والاستعداد لِما خُلقوا له.

والثاني: مثال أهل الخيانة.

والثالث: مثال لأهل الغفلة.

فالأول: إذا تَحرَّك أو سَكَنَ، أو قَام أو قَعد، أو أكل أو شَرب، أو نَام، أو

(١) الدَّغَل: هو الشجر الكثيف الملتف، وقيل هو اشتباك النبت وكثرته، وقيل: هو الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه. وانظر «لسان العرب» لابن منظور، مادة (دغل).

(٢) الجيف: جَمع جِيفة وهي جثة الميت، وقيل: جثة الميت إذا أنتنت. وانظر «لسان العرب» لابن منظور، مادة (جيف).

(٣) القِفَار: جَمع قَفر وهو الخلاء من الأرض. وانظر «لسان العرب» لابن منظور، مادة (قفر).

لبس، أو نَطق أو سكتَ كان ذلك كله لـه لا عليه، وكان في ذكرٍ وطاعةٍ وقربةٍ ومزيد.

والثاني: إذا فعل ذلك كان عليه لا له، وكان في طردٍ وإبعادٍ وخُسران.

والثالث: إذا فعل ذلك كان في غفلة وبطالةٍ وتفريطٍ.

فالأول: يتقلَّب فيما يتقلب فيه بحكم الطاعة والقُربة.

والثاني: يتقلب في ذلك بحكم الخيانة والتعدي، فإنَّ الله لَم يملكه ما ملَّكه ليستعين به على مُخالفته، فهو جـانٍ متعدٍّ خائن لله تعالَى في نعمه عليه معاقَبٌ عَلى التنعُّم بها في غير طاعته.

والثالث: يتقلَّبُ في ذلك ويتنـاوله بحكم الغفلة والهوى ونَهمة[1] النفس وطبعـها، لَم يتمتع بذلك ابتغـاء رضوان الله تعالَى والتقرب إليـه، فهذا خسرانه بَيِّن واضح، إذ عطَّل أوقات عمره التي لا قيمة لَها عن أفضل الأرباح والتجارات.

فـدعا الله عباده الـمؤمنين الـموحدين إلى هذه الصلوات الـخمس، رَحْمَة منـه بهم، وهـيأ لَهم فيها أنواع العبادة؛ لينال العبد مِنْ كلٌ قول وفعل وحركة وسكون حظه من عطاياه.

وكان سرُّ الصلاة ولُبها إقبال القلبِ فيها على الله، وحضوره بكليّته بين يديه.

[مثلٌ للعبد الغافل في صلاته]

فإذا لَم يقبل عليه واشتغلَ بغيره ولَهى بِحديث نفسه، كان بِمنْزلة وافد وفد إلَى باب الـملك معتذرًا من خطـاياه، وزلَلِهِ[2] مستمطرًا سحائب جـوده وكرمـه

(١) النَّهْمَة: بلوغ الـهمَّة في الشيء، ونُهِمَ بالشيء أي: أصبح مولعًا به، والنَّهَم: إفراط الشهوة في الطعام.

(٢) الزَّلل: هو الـخطأ والذنب.

ورحمته، مستطعمًا له ما يقيت[١] قلبه، ليقوىٰ به علىٰ القيام في خدمته؛ فلمَّا وصل إلَىٰ بَاب الملك، ولَم يبق إلاَّ مناجاته له، التفت عن الملك وزاغ عنه يَمينًا وشمالاً، أو ولاَّه ظهره، واشتغلَ عنه بأمْقَتِ شيءٍ إلى الملك، وأقله عنده قدرًا عليه، فآثره عليه، وصيَّره قبلة قلبه، ومحلَّ توجهه، وموضِعَ سرِّه، وبعث غلمانه وخدمه ليقفوا في خدم طاعة الملك عوضًا عنه ويعتذروا عنه، وينوبوا عنه في الخدمة.

والملك يشاهد ذلك ويرىٰ حاله مع هذا، فكرم الملك وجوده وسعة بره وإحسانه تأبىٰ أن يصرف عنه تلك الخدم والأتباع، فيصيبه من رحمته وإحسانه؛ لكن فرق بين قسمة الغنائم علىٰ أهل السُّهمان[٢] من الغانمين، وبين الرَّضْخ[٣] لِمن لا سَهم له: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

والله -سبحانه وتعالَىٰ- خلق هذا النوع الإنساني لنفسه واختصه له، وخلق كل شيءٍ له، ومن أجله كما في الأثر الإلهي:

«ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقتُ كلَّ شَيْءٍ لكَ، فبحقي عليكَ لا تشْتَغل بِما خلقته لك عمَّا خلقتك له»[٤].

* وفي أثر آخر:

«ابن آدم خلقتُك لنفسي فلا تلعَب، وتكفَّلت برزقِكَ فلا تتعب، ابن آدم اطلبني

---

(١) القُوت: هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام.

(٢) السُّهمان: جمع سهم، وهو النصيب.

(٣) الرَّضْخُ: هو العطية القليلة.

(٤) وهذا الأثر لم أقف علىٰ إسناده لكي أحكم عليه بالصحة أو بالضعف، وإنما ورد في بعض الكتب دون إسناد، وكلهم قال: «وفي الخبر الإلهي»، ولعله من الآثار المروية عن بني إسرائيل.

تَجدني، فإن وَجدتني وجدتَ كل شيء، وإن فُتُّك فَاتكَ كل شيء، وأنا أحب إليكَ من كل شيء»[١].

وجعل -سبحانه وتعالى- الصلاةَ سببًا موصلاً إلى قُربه، ومناجاته، ومحبته والأنس به.

[حال العبد بين الصلاتين]

وما بين الصلاتين تحدث للعبد الغفلة والجَفوة[٢] والقسوة، والإعراض والزلات[٣]، والخطايا، فيبعده ذلك عن ربه، وينحيه عن قُربه، فيصير بذلك كأنه أجنبيًّا[٤] من عبوديته، ليس من جملة العبيد، وربُما ألقىٰ بيده إلى أسر العدو له فأسره، وغلَّه، وقيَّده، وحبسه في سجن نفسه وهواه.

فحظُّه ضِيق الصدر، ومعالَجة الهموم، والغموم، والأحزان، والحسرات، ولا يدري السبب في ذلك، فاقتضت رحمة ربه الرحيم الودود أن جَعل له من عبوديته عبودية جامعة، مُختلفة الأجزاء، والحالات بِحسب اختلاف الأحداث التي كانت من العبد، وبحسب شدّة حاجته إلىٰ نصيبه مِن كلّ خير من أجزاء تلك العبودية.

[أسرار الوضوء]

فبالوضوء يتطهَّر مِنَ الأوْسَاخ، ويُقدم علىٰ ربه متطهرًا، والوضوء له ظاهر وباطن.

فظاهره: طهارة البدن، وأعضاء العبادة.

---

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) الجفاء: هو البُعد عن الشيء، يُقال: جفاه إذا بَعُدَ عنه.

(٣) الزلات: جَمع زلَّة وهي الخطيئة والسقطة.

(٤) الأجنبي: هو الغريب.

وباطنه وسره: طهارة القلب من أوساخ الذنوب والمعاصي، وأدرانه[1] بالتوبة؛ ولهذا يقرن تعالى بين التوبة والطهارة في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

[أسرار الذكر بعد الوضوء]

وشرع النبي ﷺ للمتطهر أن يقول بعد فراغه من الوضوء أن يتشهد ثُم يقول: «اللهمَّ اجعلني منَ التَّوابينَ، واجْعَلني من الْمُتطهرين»[2].

---

(١) الأدران: جَمع دَرَن وهو الوسخ.

(٢) أصل هذا الحديث وهو التشهد فقط أخرجه مسلم (٢٣٤) عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيُبلغ أو فيُسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمدًا عبد الله ورسوله إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء». وهو حديث صحيح.

وليس فيه زيادة: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين».

وقد أخرجه بهذه الزيادة الترمذي في سننه (٥٥) عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فُتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء».

قلت: وهي زيادة ضعيفة شاذة تفرد بها جعفر بن محمد بن عمران الثعلبي الكوفي شيخ الترمذي، وحاله ليس بالقوي.

قال فيه أبو حاتم: صدوق، وذكره ابن حبان في كتابه الثقات، وقد خالف الرواة الثقات الذين رووا هذا الحديث دون هذه الزيادة.

وقد ضعَّف الترمذي الحديث عقب إخراجه بقوله: «حديث عمر قد خُولف زيد بن حباب في هذا الحديث.

قال: وروىٰ عبد الله بن صالح وغيره عن معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس عن عقبة بن عامر عن عمر، وعن ربيعة عن أبي عثمان عن جبير بن نُفير عن عمر.

وهذا حديثٌ في إسناده اضطراب، ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء. =

فكمَّل له مراتب العبودية والطهارة، باطنًا وظاهرًا.

- فإنه بالشهادة يتطهر من الشرك.
- وبالتوبة يتطهر من الذنوب.
- وبالْمَاء يتطهر من الأوساخ الظاهرة.

فشرع له أكمل مراتب الطهارة قبل الدخول على الله -عَزَّ وَجَلَّ-، والوقوف بين يديه، فلمَّا طهر ظاهرًا وباطنًا، أذن له بالدخول عليه بالقيام بين يديه، وبذلك يخلص من الإباق[1].

[الذهاب إلى المسجد من تمام عبودية الصلاة]

وبمجيئه إلى داره، ومَحل عبوديته يصير من جُملة خدمه، ولهذا كان المجيء إلى المسجد من تَمام عبودية الصلاة الواجبة عند قوم والمستحبة عند آخرين.

والعبدُ في حالِ غفلته كالآبق[2] من ربه، قد عطَّل جوارحه وقلبه عن الخدمة التي خُلِقَ لَها فإذا جاء إليه فقد رجَعَ من إباقِهِ، فإذا وقفَ بيْنَ يديه موقف العبودية والتذلل والانكسار، فقد استدعى عطف سيده عليه، وإقباله عليه بَعْدَ الإعراض عنه.

=

قال محمد: وأبو إدريس لم يسمع من عمر شيئًا». انتهى

قلت: وقد رأى بعض أهل العلم تحسين هذه الزيادة لورود عدة شواهد لها، لكنَّ هذه الشواهد لا تثبت جميعها عند التحقيق، ولا يرقى بها الحديث إلى الحسن، والله تعالى أعلم.

وانظر للمزيد «مجمع الزوائد» (١/ ٢٣٩) للهيثمي، و«إرواء الغليل» (١/ ١٣٥) للألباني.

(١) الإباق: مصدر أَبَقَ يَأْبَق وَيَأْبُق بكسر الباء وضمها، أي: الهروب.

(٢) أي: الْهَارب.

[الحكمة من استقبال القبلة]

وأمر بأن يستقبل القبلة -بيته الحرام- بوجهه، ويستقبل الله -عَزَّ وَجَلَّ- بقلبه، لينسلخ[١] مِمَّا كان فيه مِنَ التَّولي والإعراض.

ثُم قام بين يديه مقام المتذلل الْخَاضع المسكين المستعطف لسيده عليه، وألْقَىٰ بيديه مسلِّمًا مستسلمًا ناكس الرأس، خاشع القلب مُطرِقَ الطرف[٢] لا يلتفت قلبه عنه، ولا طرفة عين، لا يَمْنَة ولا يَسْرَة، خاشع قد توجه بقلبه كلّه إليه، وأقبل بكليته عليه.

[أسرار عبودية التكبير]

ثُم كبره بالتعظيم والإجلال وواطأ[٣] قلبه لسانه في التكبير فكان الله أكبر في قلبه مِنْ كُلّ شيء، وصدَّق هذا التكبير بأنَّهُ لَم يكن في قلبه شيء أكبر من الله تعالى يشغله عنه، فإنَّه إذا كان في قلبه شيء يشتغل به عن الله دلَّ علىٰ أنَّ ذلك الشيء أكبر عنده من الله فإنَّه إذا اشتغل عن الله بغيره، كان ما اشتغل به هو أهم عنده من الله، وكان قول «الله أكبر» بلسانه دون قلبه؛ لأنَّ قلبه مُقبلٌ علىٰ غير الله، مُعَظِّمًا له، مُجلاًّ.

فإذا ما أطاعَ اللسان القلب في التكبير، أخرجه مِنْ لبس رداء التكبر المنافي للعبودية، ومنعه من التفات قلبه إلىٰ غير الله، إذا كان الله عنده وفي قلبه أكبر من كل شيء، فمنعه حق قوله: «الله أكبر» والقيام بعبودية التكبير من هاتين الآفتين، اللتين هُمَا مِن أَعْظَم الْحُجُب[٤] بينه وبين الله تعالىٰ.

---

(١) أي: ليخرج.
(٢) أي: ينظر بعينيه إلىٰ الأرض.
(٣) أي: وافق، والمواطأة هي الموافقة علىٰ شيء واحد.
(٤) الحُجُب: جمع حجاب وهو الستر.

[أسرار عبودية الاستفتاح]

فإذا قال: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِك»(١)، وأثنى على الله تعالى بِما هو أهله، فقد

(١) قلت: وهذا جزء من حديث رُوي موقوفًا ومرفوعًا، والموقوف أصح.

أولاً: فأما الموقوف: فقد أخرجه مسلم في صحيحه (٣٩٩) عن عبدة، أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان يجهر بهؤلاء الكلمات يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك».

قال العلامة الألباني -رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٢/ ٤٨/ ٣٤٠): «وهذا منقطع، قال النووي في «شرح مسلم» (١/ ١٧٢- طبع الهند): «قال أبو علي النسائي: هكذا وقع «عن عبدة أن عمر» وهو مرسل يعني أن عبدة وهو ابن أبي لبابة لم يسمع من عمر».

ثم ذكر النووي أن مسلمًا إنما أورد هذا الأثر عرضًا لا قصدًا، ولذلك تسامح بإيراده. قال: وله أمثلة. فراجعه.

قلت (أي: الألباني): وقد صح موصولاً...» انتهى.

ثانيًا: وأما المرفوع: فقد أخرجه أبو داود في «سننه» (٧٧٥)، والترمذي في «سننه» (٢٤٢)، والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٣٢)، وفي «السنن الكبرى» (١/ ٣١٣)، وابن ماجة في «سننه» (٨٠٤)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٥٠، ٦٩)، والدارمي في «سننه» (١٢٣٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٦٧)، والدارقطني في «سننه» (١/ ٢٩٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٣٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (١١٠٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٥٥٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ١٩٧)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٠٧) وغيرهم من طرق: عن جعفر بن سليمان الضبعي، عن علي بن علي الرفاعي، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا به.

قال الترمذي -رحمه الله-: «وفي الباب عن علي، وعائشة، وعبد الله بن مسعود، وجابر، وجبير بن مطعم، وابن عمر. قال أبو عيسى: وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب. وقد أخذ قومٌ من أهل العلم بهذا الحديث.

وأما أكثر أهل العلم فقالوا بما روي عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك».

وهكذا رُوي عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود.

والعملُ على هذا عند أكثر أهل العلم من التابعين وغيرهم.

=

خرج بذلك عن الغفلة وأهلـها، فإنَّ الغفلة حجـاب بينه وبين الله، وأتى بالتَّحِيَّة والثناء الذي يُخاطب به الملك عند الدخول عليه تعظيمًا له وتَمْهيدًا، وكان ذلك

=

وقد تُكلِّم في إسناد حديث أبي سعيد، كان يحيىٰ بن سعيد يتكلم في علي بن علي الرفاعي، وقال أحمد: لا يصح هذا الحديث». انتهىٰ

قلت: وقد تكلم فيه أيضًا الإمام أبو داود -رحمه الله- فقد قال عقب إخراجه للحديث: «وهذا الحديث يقولون: هو عن علي بن علي عن الحسن مرسلاً الوهم من جعفر». انتهىٰ

وتكلم فيه كذلك الإمام ابن خزيمة -رحمه الله- فقد قال عقب إخراجه: «وهذا الخبر لم يُسمع في الدعاء، لا في قديم الدهر ولا في حديثه، استعمل هذا الخبر علىٰ وجهه، ولا حكي لنا عن من لم نشاهده من العلماء أنه كان يكبر لافتتاح الصلاة ثلاث تكبيرات، ثم يقول: سبحانك الله وبحمدك، إلىٰ قوله: ولا إله غيرك ثم يهلل ثلاث مرات ثم يكبر ثلاثًا ...».

إلىٰ أن قال: «وهذا صحيح عن عمر بن الخطاب أنه كان يستفتح الصلاة مثل حديث حارثة لا عن النبي ﷺ، ولست أكره الافتتاح بقوله: «سبحانك الله وبحمدك» علىٰ ما ثبت عن الفاروق -رحمه الله- أنه كان يستفتح الصلاة، غير أن الافتتاح بما ثبت عن النبي ﷺ في خبر علي بن أبي طالب، وأبي هريرة وغيرهما بنقل العدل عن العدل موصولاً إليه ﷺ أحب إليَّ وأولىٰ بالاستعمال، إذ اتباع سنة النبي ﷺ أفضل وخير من غيرها». انتهىٰ

وتكلم فيه أيضًا البيهقي فقد قال عقب إخراجه للحديث: «قال أبو داود: هذا الحديث يقولون: هو عن علي بن علي عن الحسن الوهم من جعفر. قال الشيخ -رحمه الله-: ورُوي في الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك حديث آخر عن ليث عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه مرفوعًا وليس بالقوي، ورُوي ذلك مرفوعًا عن حميد عن أنس، ورُوي من وجه آخر عن عائشة، وأصح ما رُوي فيه الأثر الموقوف علىٰ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-». انتهىٰ

وانظر للمزيد: «التلخيص الحبير» (١/ ٢٢٩- ٢٣٠) لابن حجر، و«التحقيق في أحاديث الخلاف» (١/ ٣٤١)، و«العلل المتناهية» (٧٠٧) كلاهما لابن الجوزي، و«السلسلة الصحيحة» (٢٩٩٦)، و«إرواء الغليل» (٣٤٠، ٣٤١) كلاهما للعلامة الألباني -رحمه الله-.

تَمْجيدًا ومقدمةً بين يدي حاجته، فكان في الثناء من آداب العبودية، وتعظيم المعبود ما يستجلب به إقباله عليه، ورضاه عنه، وإسعافه بفضله حوائجه.

[الحكمة من الاستعاذة قبل القراءة]

فإذا شرع في القراءة قدَّم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم فإنَّه أحرص ما يكون على خِذلان[1] العبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقامات العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته، فهو أحرص شيء على صرفه عنه، وانتفاعه دونه بالبدن والقلب، فإن عَجزَ عن اقتطاعه وتعطيله عنه بالبدن اقتطع قلبه وعطَّله، وألقى فيه الوساوس ليشغله بذلك عن القيام بحق العبودية بين يدي الرب -تبارك وتعالى-.

فأُمر العبد بالاستعاذة بالله منه ليسلم له مقامه بين يدي ربه وليحيي قلبه، ويستنير بِما يتدبره ويتفهمه مِن كلام الله سيده الذي هو سبب حياة قلبه، ونعيمه وفلاحه، فالشيطان أحرص شيء على اقتطاع قلبه عن مقصود التلاوة.

ولَمَّا علم الله -سبحانه وتعالى- حَسَدَ العدو للعبد، وتفرُّغه له، وعلم عجْزَ العبد عنه، أمره بأن يستعيذ به سبحانه، ويلتجأ إليه في صرفه عنه، فيكتفي بالاستعاذة مِن مؤونة مُحاربته ومقاومته، وكأنَّه قيل له: لا طاقة لك بِهذا العدو، فاستعذ بي أُعِيذُكَ منه، واستَجِرْ بِي أُجِيرُكَ منه وأكفيكه وأمْنَعك منه.

وقال لي شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّسَ الله روحه ونوَّر ضريحه يومًا: «إذا هاشَ[2] عليك كلب الغنم فلا تشتغل بِمحاربته، ومدافعته، وعليك بالراعي فاستغث به فهو يصرف عنك الكلب، ويكفيكه».

---

(١) خَذَلَهُ يَخْذُلُهُ خِذْلانًا؛ أي: ترك عونه ونصرته.

(٢) هَاشَ القوم: إذا تحركوا وهاجوا، والْهَوْشَةُ والْهَيْشَةُ هي الفتنة والْهَيجُ والاضطراب. وانظر «مختار الصحاح» مادة (هوش) و(هيش).

فإذا استعاذَ الإنسانُ باللهِ مِنَ الشيطان الرجيم أبعده عنه.

فأفضىٰ القلب إلَىٰ معاني القرآن، ووقع في رياضه المونقة(١) وشاهد عجائبه التي تبهر العقول، واستخرج مِن كنوزه وذخائره(٢) ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سَمعت ولا خَطَرَ علىٰ قلبِ بشر، وكان الحائل بينه وبين ذلك، النفس والشيطان، فإن النفس منفعلة للشيطان، سامعة منه، مُطيعة فإذا بَعُدَ عنها وطُرِد، أَلَمَّ بِهَا(٣) الْمَلك، وثبَّتها وذكَّرها بِما فيه سعادتها ونَجاتها.

[الحال التي تنبغي للعبد حينما يقرأ القرآن]

فإذا أخذ العبد في قراءة القرآن، فقد قام مقام مُخاطبة ربّه ومُناجاته، فليحذر كل الْحَذر من التعرض لمقته(٤) وسخطه(٥)، بأن يُناجيه ويُخاطبه وقلبه مُعْرِضٌ عنه، مُلتفتٌ إلى غيره، فإنَّهُ يَستدعي بذلك مَقْتَهُ، ويكون بِمَنْزلة رجل قرَّبه ملك من ملوك الدنيا، وأقامه بين يديه فجعل يُخاطب الملك، وقد ولاَّه قفاه، أو التفت عنه بوجهه يَمْنَةً ويَسْرَة، فهو لا يفهمُ ما يقول الملك، فما الظنُ بِمقت الملك لِهذا.

فَمَا الظن بِمقت الملك الحق المبين رب العالَمين وقيوم السماوات والأرضين.

فينبغي بالْمُصَلِّي أن يقفَ عند كل آية من الفاتِحة وقفة يسيرة، ينتظر

(١) المونقة: أي الْمُعْجِبَة.

(٢) الذخائر: جمع ذخيرة وهي ما ادُّخِرَ وأُعِدَّ لأوان الْحَاجة إليه. وانظر «لسان العرب» لابن منظور، مادة (ذخر).

(٣) أَلَمَّ به: أي نزل به. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (لمم).

(٤) المقت: هو البُغض، يُقال: مَقَتَهُ؛ أي: أبغضه. وانظر «مختار الصحاح» مادة (مقت).

(٥) السَّخطُ، والسُّخْطُ: ضد الرضا، وقد سَخِطَ؛ أي: غَضِبَ. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (سخط).

جوابَ رَبِّه له، وكأنَّهُ يسمعه وهو يقول: «حَمَدني عبدي»، إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقفَ لَحْظَةً ينتظرُ قوله: «أَثْنَى عليَّ عبدي».

فإذا قالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ انتظرَ قوله: «مَجَّدني عبدي».

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتظر قوله تعالى: «هذا بَيْني وبَيْنَ عبدي».

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها انتظر قوله: «هَذا لعبدي ولعبدي ما قال»[1].

ومَنْ ذَاقَ طَعْم الصَّلاة عَلِمَ أنَّهُ لا يَقوم مقام التكبير والفاتِحة غيرهما مقامها، كما لا يقوم غيرُ القيام والركوع والسجود مقامها، فلكلٍّ عبودية من عبودية الصلاة سرٌّ وتأثيرٌ وعبودية لا تحصل في غيرها، ثُمَّ لكلِّ آية مِنْ آياتِ الْفَاتِحة عبودية وذوق ووجد يَخُصُّها لا يوجد في غيرها.

[أسرار عبودية الحمد]

فعند قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَجد تَحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب فعلاً، ووصفًا واسمًا، وَتنزيهه سُبحانه وبحمده عن كلِّ سوءٍ وعيبٍ،

---

(١) يشير الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه» (٣٩٥) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» ثلاثًا، غير تمام. فقيل لأبي هريرة: إنَّا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: الحمدُ لله رب العالمين. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم. قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: مالك يوم الدين. قال: مجَّدني عبدي (وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي) فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

فعلاً ووصفًا واسْمًا، وإنَّمـا هـو مَحمودٌ في أفعالهِ وأوصافهِ، وأسْمَائهِ، مُنَزَّهٌ عن العيوب والنقائِصِ في أفعاله وأوصـافه وأسْمَائهِ.

فأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل لا تَخرج عن ذلك، وأوصافه كلها أوصاف كمال، ونعوت جلال، وأسماؤه كلها حُسْنَى.

وحَمده تعالى قد ملأ الدنيا والآخرة، والسماوات والأرض، وما بينهما وما فيهما، فالكون كلّه ناطق بِحمده، والخلق والأمر كله صادرٌ عن حمده، وقائم بِحمده، ووجوده وعدمه بحمده، فحمْدُهُ هو سبب وجود كل شيء موجود، وهو غاية كل موجود، وكل موجود شاهد بحمده.

فإرساله رسله بِحمده، وإنزاله كتبه بِحمده، والْجَنَة عُمِّرت بأهلها بِحمده، والنار عُمِّرت بأهلها بِحمده، كما أنَهُمَا إنَّما وجدتا بِحمده.

ومـا أُطِيع إلاَّ بِحمـده، ومـا عُصِيَ إلاَّ بِحمده، ولا تسقطُ ورقة إلا بحمده، ولا يتحـرّك في الكون ذَرَّة إلاَّ بحمده، فهو -سبحانه وتعالى- المحمود لذاته، وإن لَم يحمـده العباد.

كما أنه هـو الـواحد الأحد، وإن لَم يوحِّده العباد، وهو الإله الحق وإن لَم يؤلِّهوه[1]، سبحانه هو الذي حَمِدَ نفسه على لسان الحامد كما قال النبي ﷺ: «إنَّ الله تعالَى قَالَ عَلَى لسانِ نبيه: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه»[2].

---

(١) التأليه: هو التعبيد، والتَّألُّه هو التنسك والتعبد، فمعنى قوله: «وإن لَم يؤلِّهوه»؛ أي: وإن لَم يعبدوه. وانظر «مُختار الصحاح» مادة (ألَهَ).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-، عن رسول الله ﷺ أنه قال- في حديث طويل وفيه: «... وإذا قال: سمع الله لمن حمده. فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد يسمع الله لكم. فإن الله -تبارك وتعالى- قال على لسان نبيه ﷺ سمع الله لمن حمده...»

فهو الْحَامِدُ لنفسهِ في الحقيقة علىٰ لسان عبده، فإنَّهُ هو الذي أجْرَىٰ الْحَمْدَ علىٰ لسانِهِ وقَلْبِهِ، وإجراؤه بِحمده فله الحمد كله، ولهُ الملكُ كله، وبيدهِ الْخَيرُ كله، وإليه يَرْجِعُ الأمرُ كله، علانيته وسره.

فهذه المعرفة نبذة يسيرة من معرفة عبودية الحمد، وهي نقطة من بَحر لُجي[1] من عبوديته.

* ومن عبوديته أيضًا:

أن يعلم أن حَمده لربه نعمة مِنْهُ عليه، يستحق عليها الحمد، فإذا حمده عليها استحقَّ علىٰ حَمْده حمدًا آخر، وهَلُمَّ جرًا.

فالْعَبْدُ ولو استنفد أنفاسه كلها في حَمد ربه علىٰ نعمةٍ مِنْ نِعَمِهِ، كان ما يَجب عليه مِنَ الْحَمد عليها فوقَ ذلك، وأضعافَ أضعافه، ولا يُحصي أحد البتةَ[2] ثناءً عليه بِمحامده، ولو حَمده بِجميع الْمحامد فالعبدُ سائر إلى الله بكلِّ نعمة مِنْ رَبِّه، يحمده عليها، فإذا حَمِدَهُ علىٰ صَرْفِهَا عَنْه، حَمدهُ علىٰ إلْهَامِهِ الْحَمْد.

قال الأوْزَاعي: «سمعتُ بعض قوالٍ يُنْشد في حمامٍ:

لـكَ الْـحَمْدُ إمَّـا عـلى نعمـةٍ ... وإمَّـا عـلى نقمـة تُـدْفعُ[3]

---

(١) أي: واسع عميق كبير عظيم.

(٢) الْبَتُّ: هو الْقَطْعُ، يُقال: هذا الأمرُ لا أفعله البتة؛ أي: لا أعود لفعله أبدًا.

(٣) وهذا الشعر أورده الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد» (٦/ ١٢٢)، وابن الجوزي في كتابه «المنتظم» في ترجمة أبي مسلم إبراهيم بن عبد الله بن مسلم البصري الكجي قال: خرجت يومًا في حاجة لي سحرًا فغرني القمر وكان يومًا باردًا وإذا الحمام قد فتح. فقلت: أدخل إلَىٰ الحمام قبل مُضيِّي في حاجتي. فقلت للحمامي: يا حمامي أدخل حمامك أحد؟ فقال: لا. فدخلت الحمام فساعة فتحت الباب قال لي قائل: أبو مسلم أسلم تسلم. ثم أنشأ يقول:

=

* ومن عبودية الحمد:

شهودُ العبدِ لعجزه عن الحمدِ، وأنَّ ما قامَ به منه، فالربُّ سُبْحانه هو الذي ألْهمه ذلك، فهو مَحمود عليه، إذ هو الذي أجراه على لسانه وقلبه، ولولا الله ما اهتدى أحد.

* ومن عبودية الحمد:

تسليط الحمد على تفاصيل أحوال العبد كلها ظاهرها وباطنها على مَا يُحب العبد منها وما يكره، بل على تفاصيل أحوال الخلق كلهم، برهم وفاجرهم، علويهم وسفليهم، فهو سبحانه المحمود على ذلك كله في الحقيقة، وإن غابَ عن شهود العبد حكمة ذلك، وما يستحق الرب -تبارك وتعالى- من الحمد على ذلك، والحمد لله هو إلْهَامٌ[1] مِنَ الله للعباد، فمستَقِلٌّ ومُستكثِرٌ على قدر معرفة العبد بربه.

وقد قال النبي ﷺ في حديث الشفاعة:

«فأقع ساجدًا فيلهمني اللهُ مَحَامدَ أَحمده بِهَا لَم تَخطر على بالي قط»[2].

=

لك الحمد إما على نعمة   وإما على نقمة تدفع
تشاء فتفعل ما شئته   وتسمع من حيث لا يسمع

قال: فبادرت وخرجت وأنا جزع فقلت للحمامي: أليس زعمت أنه ليس في الحمام أحد. فقال لي: هل سمعت شيئاً؟ فأخبرته بما كان. فقال لي: ذاك جني يتراءى لنا في كل حين وينشدنا الشعر...

قلت: وقد ذكر هذه القصة أيضًا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في كتابه «البداية والنهاية» (١١/ ١١٢)، وعزاها للخطيب وابن الجوزي.

(١) الإلهام: هو أن يُلقي الله في النفس أمرًا يبعثه على الفعل أو الترك، وهو نوعٌ من الوحي يَخصُّ الله به من شاء من عباده. وانظر «لسان العرب» لابن منظور، مادة (لهم).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٤١٠)، ومسلم في «صحيحه» (١٩٣) من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-.

[أسرار قوله: « رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ »]

ثُم لقول العبد: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من العبودية شهود تفرده سبحانه بالربوبية وحده، وأنّه كما أنه رب العالَمين، وخالقهم، ورازقهم، ومدبر أمورهم، وموجدهم، ومغنيهم، فهو أيضًا وحده إلههم، ومعبودهم، وملجأهم ومفزعهم عند النوائب[1]، فلا ربٌ غيره، ولا إله سواه.

[أسرار قوله: « ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ »]

ولقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ عبودية تخصه سبحانه، وهي شهود العبد عموم رحمته.

وشمولها لكل شيء، وسعتها لكلِّ مَخلوق وأخذ كل موجود بنصيبه منها، ولاسيما الرحمة الخاصة بالعبد وهي التي أقامته بين يدي ربه: أقم فلانًا، ففي بعض الآثار أن جبرائيل يقول كل ليلة أقم فلانًا، وأنم فلانًا[2].

فبرحمته للعبد أقامه في خدمته يُناجيه بكلامه، ويتملقه[3] ويسترحمه ويدعوه ويستعطفه ويسأله هدايته ورحمته، وتَمام نعمته عليه دنياه وأخراه فهذا من رحمته بعبده، فرحمته وسعت كل شيء، كما أنَّ حَمده وسع كل شيء، وعلمه وسع كل شيء ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وغيره مطرود مَحروم قد فاتته هذه الرحمة الخاصة فهو منفي عنها.

---

(١) النوائب: جمع نائبة وهي المصيبة. وانظر «مختار الصحاح» مادة (نوب).

(٢) وهذا الأثر لم أقف على إسناده ولا على من أخرجه، وقد ذكره أيضًا الإمام ابن رجب الحنبلي -رحمه الله- في كتابه «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى»، وقال: «في بعض الآثار يقول الله -عزَّ وجَلَّ- كل ليلة: يا جبريل أقم فلاناً وأنم فلانًا».

(٣) يَتَمَلَّقُهُ: أي يتودد إليه ويتلطف له، والْمَلَقُ هو الوُدُّ واللطف. وانظر «مختار الصحاح» مادة (ملق).

[أسرار قوله: « مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ »]

ويُعطي قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ عبوديته من الذلّ والانقياد، وقصد العدل والقيام بالقسط، وكفٍّ العبد نفسه عن الظلم والمعاصي.

وليتأمل ما تضمنته من إثبات المعاد، وتفرُّد الربّ في ذلك بالحكم بين خلقه، وأنّه يوم يدين[1] الله فيه الخلق بأعمالِهم من الخير والشر، وذلك من تفاصيل حمده، وموجبه كما قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

ويروى أنّ جَميعَ الخلائق يَحمدونه يومئذٍ أهلَ الْجنة وأهل النار، عَدلاً وفضلاً[2].

ولَمَّا كان قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إخبارًا عن حَمد عبده له قال: «حَمدني عبدي».

ولَمَّا كان قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إعادة وتكريرًا لأوصاف كماله قال: «أثْنَى عليَّ عبدي».

فإنَّ الثناء إنَّما يكون بتكرار المحامد، وتعداد أوصاف المحمود، فالحمد ثناء عليه، و﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وصفه بالرَّحْمَة.

ولَمَّا وصف العبد ربه بتفرُّده بملك يوم الدين وهو الملك الحق، مالك الدنيا والآخرة؛ وذلك متضمن لظهور عدله، وكبريائه وعظمته، ووحدانيته، وصدق رُسله، سمى هذا الثناء مَجدًا فقال: «مَجَّدني عبدي».

فإنَّ التمجيد هو: الثناء بصفات العظمة، والجلال، والعدل، والإحسان.

(١) أي: يُجازي ويُحاسب. وانظر «مُختار الصحاح» مادة (دين).
(٢) لم أقف على هذا المروي في هذا الشأن.

[أسرار قوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»]

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتظر جواب ربه له: «هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل».

وتأمل عبودية هاتين الكلمتين وحقوقهما، ومَيِّز الكلمة التي لله -سبحانه وتعالى-، والكلمة التي للعبد، وفِقه سرٌ كونِ إحداهما لله، والأخرى للعبد، ومَيِّز بين التوحيد الذي تقضيه كلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والتوحيد الذي تقتضيه كلمة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفِقْه سرٌ كون هاتين الكلمتين في وسط السورة بين نوعي الثناء قبلهما، والدعاء بعدهما، وَفِقْهَ تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وتقديم المعمول على العامل مع الإتيان به مؤخرًا أَوْجَزَ وأخصر، وسرَّ إعادة الضمير مرة بعدَ مرة.

قلت: أراد تقديم العبادة -وهي العمل- على الاستعانة، فالعبادة لله والاستعانة للعبد، فالله هو المعبود، وهو المستعان على عبادته.

فإيَّاك نعبد؛ أي: إيَّاك أريد بعبادتي، وهو يتضمن العملُ الصالِح الْخَالِصُ، والعلم النافع الدَّال على الله، معرفةً ومَحبَّة، وصدقًا وإخلاصًا، فالعبادة حق الرب تعالَى على خلقه.

والاستعانة تتضمن استعانة العبد بربه على جَميع أموره، وهي القول المتضمن قسم العبد.

فكل عبادة لا تكون لله وبالله فهي باطلة مضمحلة[1]، وكل استعانة لا تكون بالله وحده فهي خِذلان[2] وذُل.

---

(١) اضْمَحَلَّ الشيءُ: أي ذهب، فمعنى قوله: «مضمحلة» أي: ذاهبة سُدىً لا قيمة لها.
(٢) الخِذلان: هو ترك النصرة والإعانة.

وتأمل علم ما ينفع العباد وما يدفع عنهم كل واحدٍ مِن هاتين الكلمتين مِنَ الآفة المنافية للعبودية نفعًا ودفعًا، وكيف تُدخل العبدَ هاتان الكلمتان في صريح العبودية.

وتأمل عِلمَ كيف يدور القرآن كله مِن أوله إِلَىٰ آخره عليهما، وكذلك الخلق، والأمر، والثواب، والعقاب، والدنيا، والآخرة، وكيف تضمنتا لأجلِّ الغايات، وأكمل الوسائل، وكيف أتىٰ بِهما بضمير المخاطب الحاضر، دون ضمير الغائب.

وهذا موضوع يستدعي كتابًا كبيرًا، ولولا الخروج عما نَحن بصدده لأوضحناه وبسطناه، فمن أراد الوقوف عليه فقد ذكرناه في كتاب: «مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»[1]، وفي كتاب: «الرسالة المصرية».

---

(١) وقد بسط الإمام ابن القيم -رحمه الله- الكلام عن هاتين الكلمتين في كتابه «مدارج السالكين بين منازل إِيَّاك نعبد وإِيَّاك نستعين» (١/ ٦٢) وما بعده.
ومن بديع كلامه في ذلك يقول -رحمه الله-: «وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب انتهىٰ إِلَىٰ هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتىٰ قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، في «إِيَّاك نعبد، وإِيَّاك نستعين».
وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالىٰ وهو: «إِيَّاك نعبد»، ونصفهما لعبده، وهو: «إِيَّاك نستعين»، وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.
و«العبادة» تَجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد؛ أي: مُذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتىٰ تكون مُحبًا خاضعًا، ومن هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربِّهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه مَحبوبًا لهم، بل هو غاية مطلوبهم -ووجهه الأعلىٰ نهاية بغيتهم-؛ =

منكرين لكونه إلهًا، وإن أقروا بكونه ربًّا للعالمين وخالقًا لهم، فهذا غاية توحيدهم، وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]. ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ إلىٰ قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩]. ولهذا يَحتج عليهم به علىٰ توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

و«الاستعانة» تَجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره -مع ثقته به- لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه -مع عدم ثقته به- لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلىٰ اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

و«التوكل» معنىٰ يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة «إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين» وهذان الأصلان -وهما التوكل، والعبادة- قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قُرِنَ بينهما فيها، هذا أحدهما.

الثاني: قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالىٰ حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨، ٩].

السادس: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه ستة مواضع يَجمع فيها بين الأصلين، وهما: «إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين».

وتقديم «العبادة» علىٰ «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات علىٰ الوسائل، إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها؛ ولأن «إياك نعبد» متعلق بألوهيته واسمه «الله»، و«إياك نستعين» متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم «إياك نعبد» علىٰ «إياك نستعين» كما قدم اسم «الله» علىٰ «الرب» في أول السورة؛ ولأن «إياك نعبد» قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء علىٰ الله تعالىٰ، لكونه أولىٰ به، و«إياك نستعين» قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو «اهدنا الصراط المستقيم» إلىٰ آخر السورة؛ ولأن «العبادة» المطلقة تتضمن «الاستعانة» من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة، مستعين به ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به علىٰ شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم؛ ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس؛ ولأن «الاستعانة» طلب منه و«العبادة» طلب له؛ ولأن «العبادة» لا تكون إلاَّ من مخلص، و«الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص؛ ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون علىٰ العبادة.

وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك وأداء حقه، أهم من التعرض لصدقته؛ ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يُحب أن يشكر، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تَحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و«العبودية» مَحفوفة بإعانتين: إعانة قبلها علىٰ التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها علىٰ عبودية أخرىٰ وهكذا أبدًا، حتىٰ يقضي العبد نحبه؛ ولأن «إياك نعبد» له، و«إياك نستعين» به، وما له مقدم علىٰ ما به؛ لأن ما له متعلقٌ بِمحبته ورضاه، وما به متعلقٌ بمشيئته، وما تعلق بِمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته طاعتهم وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا، وكل ما فيها فإنه به تعالىٰ وبمشيئته. فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» علىٰ «إياك نستعين».

وأمَّا تقديم المعبود والمستعان علىٰ الفعلين، ففيه أدبهم مع الله بتقديم اسمه علىٰ فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمىٰ بالحصر، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلاَّ بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدمًا، وسيبويه نص علىٰ الاهتمام، ولم ينف غيره.

ولأنه يقبح من القائل: أن يُعتق عشرة أعبد مثلاً، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت، ومن سمعه أنكر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضًا أعتقت، ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]. و﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]. كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي، وكذلك «إياك نعبد وإياك نستعين» هو في قوة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

=

[أسرار قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾]

ثُم ليتأمل العبد ضرورته وفاقته[1] إلَىٰ قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ الذي مضمونه معرفة الحق، وقصده وإرادته والعمل به، والثبات عليه، والدعوة إليه، والصبر علىٰ أذىٰ المدعو إليه فباستكمال هذه المراتب الخمس يستكمل العبدُ الهدايةَ وما نقص منها نقص من هدايته.

ولَمَّا كان العبدُ مفتقرًا إلى هذه الهداية في ظاهره وباطنه، بل وفي جَميع ما يأتيه ويَذَره من:

* أمور فعلها علىٰ غير الهداية علمًا وعملاً وإرادة، فهو مُحتاج إلى التوبة منهـا، وتوبته منها هي من الهداية.

* وأمور قد هُـدي إلَىٰ أصلها دون تفصيلها، فهو مُحـتاج إلَىٰ هـداية تفـاصيلها.

=

ولا عبرة بجدل من قل فهمه، وفتح عليه باب الشك والتشكيك، فهؤلاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم، مع أن في ضمير «إياك» من الإشارة إلىٰ نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل، ففي إياك قصدت، وأحببت، من الدلالة علىٰ معنىٰ حقيقتك وذاتك قصدي، ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك، وإياك أعني، فيه معنىٰ: نفسك وذاتك، وحقيقتك أعني، ومن هاهنا قال من قال من النحاة: إن «إيًا» اسم ظاهر مضاف إلىٰ الضمير المتصل. ولم يرد عليه بردٍ شافٍ.

لولا أنا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها، ونصرنا الراجح، ولعلنا أن نعطف علىٰ ذلك بعون الله.

وفي إعادة «إياك» مرة أخرىٰ دلالة علىٰ تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين. ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثلاً: إياك أحب، وإياك أخاف، كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره، ما ليس في قولك: إياك أحب، وأخاف». انتهىٰ

(١) الفاقة: هي الفقر والْحَاجة. وانظر «مختار الصحاح» مادة (فوق).

* وأمور قد هُدي إليها من وجهٍ دون وجه، فهو مُحتاج إلى تَمام الهداية في كمالِها على الهدى المستقيم، وأن يزداد هدًى إلى هُداه.

* وأمور هو مُحتاج فيها إلَى أن يحصل لـه من الهداية في مستقبلها مثل ما حصل له في ماضيها.

* وأمـور هو خـال عن اعتقاد فيها فهو مُحتاج إلى الهداية فيها اعتقادًا صحيحًا.

* وأمور يعتقد فيها خلاف ما هي عليه، فهو مُحتاج إلى هداية تنْسَخُ من قلبه ذلك الاعتقاد الباطل، وتثبت فيه ضده.

* وأمور من الهداية: هو قادر عليها، ولكن لَم يخلق له إرادة فعلها، فهو مُحتاج في تمام الهداية إلى خلق إرادة.

* وأمور منها: هو غير قادر على فعلها مع كونه مريدًا لها، فهو محتاج في هدايته إلى إقدار عليها.

* وأمور منها: هو غـير قادر عليها ولا مُـريد لها، فهو مُحتاج إلَى خلق القدرة عليها والإرادة لَها لتتم له الهداية.

* وأمور: هو قائمٌ بِهَا على وجه الهداية اعتقادًا وإرادة، وعلمًا وعملاً، فهو مُحتاج إلى الثبات عليها واستدامتها، فكانت حاجته إلى سؤال الهداية أعظم الحاجات، وفاقته إليها أشد الفاقات[1].

ولهذا فرض عليه الرب الرحيم هذا السؤال على العبيد كل يوم وليلة في أفضل أحواله، وهي الصلوات الخمس، مرات متعددة؛ لشدة ضرورته وفاقته إلى هذا المطلوب.

---

(١) الفاقات: جمع فاقة، وهي الفقر والحَاجة. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (فوق).

ثُم بَيَّن أنَّ سبيل أهل هذه الهداية مغاير لسبيل أهل الغضب وأهل الضلال، وهُم اليهود، والنصارىٰ وغيرهم.

[أقسام الخلق في الهداية]

فانقسم الخلق إذن إلى ثلاثة أقسام بالنسبة إلى هذه الهداية:

مُنعمٌ عليه: بِحصولِها لهُ واستمرارها وحظه من المنعم عليهم، بحسب حظه من تفاصيلها وأقسامها.

وضالٌّ: لَم يُعْطَ هذه الهداية ولَم يُوفَّق لَها.

ومغضوبٌ عليه: عَرفها ولَم يُوَفَّق للعمل بِموجبها.

فالضال: حائدٌ[1] عنها، حائرٌ لا يَهتدي إليها سبيلاً.

والمغضوب عليه: متحيرٌ منحرف عنها؛ لانحرافه عن الحق بعد معرفته به مع علمه بها.

فالأول المنعم عليه قائمٌ بالْهُدىٰ، ودين الحق علمًا وعملاً واعتقادًا.

والضال عكسه، منسلخٌ منه علمًا وعملاً.

والمغضوب عليه لا يرفع فيها رأسًا، عارف به علمًا منسلخ عملاً، والله الموفق للصواب.

ولولا أن المقصود التنبيه علىٰ المضادة والمنافرة التي بين ذوق الصلاة، وذوق السماع، لبسطنا هذا الموضوع بسطًا شافيًا، ولكن لكلٍّ مقام مقال، فلنرجع إلى المقصود.

[أسرار التامين بعد الفاتحة]

وشرعَ لهُ التأمين في آخر هذا الدعاء تفاؤلاً بإجابته، وحصوله، وطابعًا[2]

---

(١) حاد عن الشيء: أي مال عنه وعدل. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (حيد).
(٢) الطَّابَعُ: هو الخَاتم، يُقال: طبع علىٰ الكتاب؛ أي: ختم عليه.

عليه، وتحقيقًا له، ولهذا اشتد حسدُ اليهود للمسلمين عليه حين سمعوهُم يَجْهَرون به في صلاتهم[1].

[أسرار رفع اليدين عند الركوع]

ثُمَّ شرعَ له رَفع اليدين عند الركوع تعظيمًا لأمر الله، وزينةً للصلاة، وعبودية خاصَّة لليدين كعبودية باقي الجوارح، واتباعًا لسُنَّة رسول الله ﷺ فهو حِلْيَةُ الصَّلاة، وزينتها وتعظيمٌ لشعائرها.

[أسرار التكبير في الصلاة]

ثُمَّ شرعَ له التكبير الذي هو في انتقالات الصلاة من رُكن إلى رُكن، كالتلبية في انتقالات الحاجِّ، مِنْ مشعر إلى مشعر[2]، فهو شعار[3] الصلاة، كما أن

(١) يشير الإمام ابن القيم -رحمه الله- إلى حديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين».
وهو حديث أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (٢/ ٥٤٠، ٥٤١)، وعنه أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٨٥٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٨٨). قلت: وسنده صحيح.
وقال البوصيري في «الزوائد»: «هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات. احتج مسلم بجميع رواته».
وصحَّحه العلامة الألباني -رحمه الله- في عدد من كتبه مثل: «صحيح الترغيب والترهيب»، و«صفة الصلاة»، و«صحيح سنن ابن ماجه»، و«صحيح الجامع»، و«السلسلة الصحيحة» وغيرها.
هذا وقد أخرج الحديث أيضًا ابن خزيمة في «صحيحه» (٥٧٤) بطريق وبلفظ آخر: «... إن اليهود قومٌ حُسَّد، وهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على السلام وعلى آمين».
هذا وللحديث طرق وألفاظ أخرى، وانظر «السلسلة الصحيحة» (٦٩١) للعلامة الألباني -رحمه الله تعالى-.
(٢) المشاعر: هي مواضع المناسك.
(٣) الشِّعار: هو ما ولي الجسد من الثياب، وشعار القوم في الحرب علامتهم ليعرف بعضهم بعضًا. فقوله «شعار الصلاة»: أي علامتها.

التلبية شعار الحج، ليعلمَ العبدُ أنَّ سر الصلاة هو تعظيم الربِّ تعالى وتكبيره بعبادته وحده.

[أسرار الركوع]

ثُم شَرَع له بأنْ يَخْضَع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعًا لعظمة ربه، واستكانة لهيبته، وتذللاً لعزته.

فثناء العبد على ربه في هذا الركن، هو أن يَحْني له صلبه، ويضع له قامته، وينكس له رأسه، ويَحني له ظهره، ويكبره مُعظِّمًا له، ناطقًا بتسبيحه، المقترن بتعظيمه.

فاجتمعَ له خضوع القلب، وخضوع الجوارح، وخضوع القول على أتم الأحوال، ويَجتمع له في هذا الركن من الخضوع، والتواضع، والتعظيم، والذكر ما يفرق به بين الخضوع لربه، والخضوع للعبيد بعضهم لبعض، فإنَّ الخضوع وصف العبد، والعظمة وصف الرب.

وتَمام عبودية الركوع أن يتصاغرَ الراكع، ويتضاءل[1] لربه، بحيث يَمحو تصاغرُه لربه من قلبه كلَّ تعظيم فيه لنفسه، ولخلقه، ويثبت مكانه تعظيمه ربه وحده لا شريك له.

وكلَّما استولى على قلبه تعظيم الربِّ، وقوي خرج منه تعظيم الخلق، وازداد تصاغره هو عند نفسه، فالركوع للقلب بالذات والقصد، والجوارح بالتبع والتكملة.

***

---

(١) يتضاءل: أي يتصاغر، يُقال: رجل ضئيل الجسم إذا كان صغير الجسم نَحيفًا. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (ضأل).

[أسرار الحمد بعد الاعتدال من الركوع]

ثُم شرع له أن يَحمد ربه، ويُثني عليه بآلائه عند اعتداله وانتصابه ورجوعه إلى أحسن هيئاته، منتصب القامة معتدلها فيحمد ربه ويثني عليه بآلائه عند اعتداله وانتصابه ورجوعـه إلَى أحسن تقويم، بأن وفَّقه وهداه لِهذا الخضوع الذي قـد حُرمه غيره.

ثُم نقله منه إلى مقام الاعتدال والاستواء، واقفًا في خدمته، بين يديه كما كان في حالة القراءة في ذلك، ولِهذا شرع له من الحمد والمجد نظير ما شرع له من حال القراءة في ذلك.

ولِهذا الاعتدال ذوقٌ خاص، وحال يحصل للقلب، ويخصه سوى ذوق الركوع وحاله، وهو ركنٌ مقصود لذاته كركن الركوع والسجود سواء.

ولِهذا كان رسول الله ﷺ يُطيله كما يُطيلُ الركوع والسجود، ويُكثر فيه من الثناءِ والحمد والتمجيد، كما ذكرناه في هديه ﷺ[١] في صلاته[٢] وكان في قيام الليل يُكثر فيه من قول: «لربِّي الْحَمْدُ، لربي الْحَمْد»[٣]، ويُكرِّرها.

---

(١) يقصد -رحمه الله- كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد»، وهذا وغيره مما سبق يؤكد صحة نسبة هذا الكتاب إلى الإمام ابن القيم -رحمه الله-.

(٢) انظر كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/ ٢٠٩).

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» (٨٧٤)، والنسائي في «السنن الصغرىٰ» (٢/ ١٩٩، ٢٣١)، وفي «السنن الكـبرىٰ» (١/ ٢٢٤، ٢٤٤، ٤٣٤)، وأحمـد في «مسنـده» (٥/ ٣٩٨)، والترمـذي في «الشمائل المحمـدية» (٢٦٢)، والطيـالسي في «مسنـده» (٤١٦)، وغيرهم من حديث حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه-.

قلت: والحديث صحَّحه العلامة الألباني -رحمه الله- في عدد من كتبه مثل «إرواء الغـليل» (٢/ ٤٢)، و«مشـكاة المصـابيح» (١٢٠٠)، و«صفة الصـلاة» (ص١٣٧)، و«صلاة التراويح» (ص١٢)، و«مختصر الشمائل» (ص١٥٠)، وغيرهـا من كتبه.

[أسرار السجود]

ثُم شَرَعَ له أن يكبر ويدنو ويَخرَّ ساجدًا، ويُعطي في سجوده كل عضوٍ من أعضائِهِ حظَّه من العبودية، فيضع ناصيتَه[١] بالأرض بين يدي ربه، مسندةً راغمًا[٢] لـه أنفـه، خـاضعًا له قلبه، ويضع أشرف ما فيه -وهو وجهه- بالأرض، ولاسيما وجه قلبه مع وجهه الظاهر ساجدًا على الأرض مُعَفِّرًا[٣] له وجهه وأشرف ما فيه بين يدي سيده، راغمًا أنفـه، خـاضِعًا له قلبُهُ وجوارحه، متذللاً لعظمـة ربه، خـاضعًا لعزته، مـنيبًا إليـه، مستكينًا ذلاً وخضـوعًا وانكسارًا، قد صارت أعـاليه ملويةً لأسافله.

وقد طـابقَ قلبُه في ذلك حـال جـسده، فسجد القلب للرب كما سجـد الجسد بين يدي الله، وقد سجد معه أنفُهُ ووجهه، ويداه وركبتاه، ورجلاه.

فهـذا العبد هو القريب المقرَّب فهو أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد.

وشَرَعَ لـه أن يُقِلَّ[٤] فخِذَيْهِ عن ساقيه، وبطنه عن فخذيه وعَضُديه عن جَنبيه، ليأخذ كل جـزءٍ منه حظَّه من الخضوع لا يحمل بعضهُ بعضًا.

***

---

(١) الناصية: هي مُقَدَّمُ الرأس، وقيل: هي منبت الشعر في مقدَّم الرأس. وانظر «لسان العرب» لابن منظور، مادة (نصا).

(٢) الرَّغَام: هو التراب، يُقال: أرغم الله أنفـه؛ أي: ألصقـه بالتراب، ويُقال: رغم أنفي لله؛ أي: ذلَّ وانقاد لأنني أمس به التراب. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (رغم).

(٣) العَفَرُ: هو التراب، يُقـال: «عَفَّرتُ الشيءَ»؛ أي: مرَّغته في التراب. وانظر «مختـار الصحاح»، مادة (عفر).

(٤) أَقَلَّ الشيءَ يُقِلُّه، إذا رفعه وحمله، فالمعنىٰ: أنه يرفع فخذيه عن ساقيه ويَحملهما. وانظر «النهاية في غريب الأثر» لابن الأثير (٤/ ١٦٠).

فأحْرِ به[١] في هذه الحال أن يكون أقرب إلى ربه منه في غيرها من الأحوال كلها، كما قال النبي ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[٢].

[سجود القلب]

ولَمَّا كَان سُجودُ القلبِ خضوعه التام لربّه أمكنه استدامة هذا السجود إلى يوم القيامة، كما قيل لبعض السلف:

* **هل يسجد القلب؟**

قال: «أي والله سجدةً لا يرفع رأسه منها حتى يلقى الله -عَزَّ وَجَلَّ-»[٣].

إشارةً إلى إخبات[٤] القلب، وذله، وخضوعه، وتواضعه وإنابته وحضوره مع الله أينما كان، ومراقبته له في الخلاء والملأ.

[الصلاة مبنية على خمسة أركان تُسمَّى بكل واحد منها]

ولَمَّا بُنَيت الصلاة على خَمس: القراءة، والقيام، والركوع، والسجود، والذكر، سُمّيت باسم كل واحد من هذه الخَمس.

فسُمِّيت «قيامًا» لقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ٢].

- وقوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

و«قراءة» لقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

- ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

وسُمِّيت «ركوعًا» لقوله: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

---

(١) فَأحْرِ به: أي أجْدَر وأخْلِق وَأوْلَى. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (حرا).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤٨٢) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٣) وهذا القول عزاه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٨٧) لسهل بن عبد الله التستري -رحمه الله-، ولم أقف عليه مسندًا عنه.

(٤) الإخبات: الخشوع، يُقال: أخبتَ لله تعالَى؛ أي: خشع.

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات: ٤٨].

«وسجودًا» لقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٨].

- وقوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩].

و«ذِكْرًا» لقوله: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]. ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

وأشرف أفعالها السجود، وأشرف أذكارها القراءة، وأول سورة أنزلت علىٰ النبي ﷺ سورة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ افتُتِحَت بالقراءة، وخُتِمت بالسجود، فَوُضِعَت الركعة علىٰ ذلك، أولها قراءة وآخرها سجود.

[أسرار الجلوس بين السجدتين]

ثُمَّ شرع له أن يرفع رأسه، ويعتدل جالسًا، ولَمَّا كان هذا الاعتدال مَحفوفًا بسجودين؛ سجود قبله، وسجود بعده، فينتقل من السجود إليه، ثُم منه إلَىٰ السجود الآخر، كان له شأن.

فكان رسول الله ﷺ يطيل الجلوس بين السجدتين بقدر السجود يتضرع[1] إلى ربه فيه، ويدعوه، ويستغفره، ويسأله رحمته، وهدايته، ورزقه وعافيته[2]، وله ذوق خاص، وحال للقلب غير ذوق السجود وحاله؛ فالعبد في

---

(١) يتضرَّع: أي يبتهل. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (ضرع).

(٢) يشير المصنِّفُ -رحمه الله- إلَىٰ حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، أن النبي ﷺ كان يقول بين السجدتين: «اللهم اغفر لي وارحمني وعافني واهدني وارزقني».

وقد أخرجه أبو داود في «سننه» (٨٥٠)، والترمذي في «سننه» (٢٨٤، ٢٨٥)، وابن ماجه في «سننه» (٨٩٨)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٣١٥)، والبغوي في «شرح السنة» (٦٦٧)، والحاكم في «مستدركه» (١/ ٢٦٢، ٢٧١)، وابن المنذر في «الأوسط» (٣/ ١٩٠/ ١٤٨١)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢/ ١٢٢)، والضياء في «المختارة» (١/ ١٣٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ٢٠/ ١٢٣٦٣)، وابن حبان في

«المجروحين» (٢/ ٢٢٧) وغيرهم من طرق: عن كامل أبي العلاء عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير أو حبيب عن ابن عباس -رضي الله عنهما- به.

قلت: وقد اختلفت أنظار العلماء في هذا الحديث؛ فمنهم من رأىٰ ثبوته وصحته، ومنهم من رأىٰ ضعفه وعدم ثبوته.

أولاً: من يرى صحته أو حسنه:

١] الحاكم فقد قال عقب إخراجه: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وأبو العلاء كامل بن العلاء التميمي ممن يُجمع حديثه في الكوفيين».

٢] الضياء المقدسي بإخراجه له في «المختارة»؛ لأنه اشترط ألا يخرج إلا حديثًا صحيحًا أو حسنًا.

٣] النووي فقد قال في «المجموع» (٣/ ٤٣٧): «رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بإسناد جيد، ورواه الحاكم في «المستدرك» وقال: صحيح الإسناد».

٤] المباركفوري في «تحفة الأحوذي» فقد دافع عن الحديث ورأىٰ أنه إن لم يكن صحيحًا فلا ينزل عن درجة الحسن.

٥] الألباني صححه في عدد من كتبه مثل: «صفة الصلاة»، و«صحيح أبي داود»، و«صحيح الترمذي»، و«صحيح ابن ماجه» وغيرها.

ثانيًا: من يرى ضعفه وعدم ثبوته:

١] الترمذي فقد قال عقب إخراجه: «هذا حديث غريب» أي: ضعيف. وقال مُعلاً للحديث: «ورویٰ بعضهم هذا الحديث عن كامل أبي العلاء مرسلاً».

٢] البغوي فقد قال عقب إخراجه: «هذا حديث غريب».

٣] ابن رجب الحنبلي أشار إلىٰ ضعفه في كتابه «فتح الباري» (٧/ ٢٧٥) فقال: «في إسناده كامل أبو العلاء وثقه ابن معين وغيره، وقال النسائي: ليس بالقوي، وتكلم فيه غير واحد». وقال: «وقد اختلف عليه في وصله وإرساله».

٤] ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ١١٥) حكم بغرابته، وفي «التلخيص الحبير» (١/ ٢٥٨) قال: «وفيه كامل أبو العلاء وهو مختلف فيه».

قلت: وبعد البحث والنظر تبين لي أن الصواب مع من ضعَّفوا الحديث لا مع من صحَّحوه، وذلك لأربعة أشياء توجب ضعفه ووهنه:

الأول: ما قيل في كامل أبي العلاء فقد تكلم فيه بعض الأئمة: قال النسائي: ليس بالقوي، وقال في موضع آخر: ليس به بأس. وقال ابن عدي: رأيت في بعض رواياته أشياء أنكرتها، وأرجو أنه لا بأس به. وقال ابن سعد: كان قليل الحديث وليس

هـذا القعود يتمثل جاثيًا[1] بين يدي ربه، مُلقيًا نفسه بين يديه، مُعتذرًا إليه مِمَّا جناه، راغبًا إليه أن يغفر له ويرحمه، مستعْدِيًا له على نفسه الأمَّارة بالسوء.

وقد كان النبي ﷺ يكرر الاستغفار في هذه الجلسة فيقول: «رب اغفر لي، رب اغفر لي، رب اغفر لي»[2]، ويكثر من الرغبة فيها إلى ربه.

فمثِّل أيها المصلي نفسك فيها بِمَنْزلة غريم عليه حق، وأنت كفيل به،

=

بذاك. وقال ابن المثنى: ما سمعت ابن مهدي يحدث عنه شيئًا قط.

وقال ابن حبان: كان ممن يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل من حيث لا يدري فبطل الاحتجاج بأخباره. «تهذيب التهذيب» (٨/ ٣٦٦).

الثاني: أنه قد اختلف على كامل أبي العلاء في وصل الحديث وإرساله كما قال الترمذي وابن رجب -رحمهما الله-.

الثالث: أن حبيب بن أبي ثابت مدلس كثير الإرسال، وقد عدَّه الحافظ ابن حجر في الطبقة الثالثة من المدلسين، فلا تُقبل عنعنته إلا بعد أن يُصرِّح بالتحديث.

الرابع: الاختلاف والاضطراب الشديد في متنه وألفاظه فمثلاً رُوي «واجبرني» بدل «وعافني»، ورُوي «وارفعني» بدل «واهدني»، وعند بعضهم «وانصرني»!!. فهذا يبين مدى اضطراب الراوي كامل أبي العلاء في رواية متن هذا الحديث.

قلت: فهذه الأسباب الأربعة تكفي للحكم على هذا الحديث بالضعف، والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) جاثيًا: أي جالسًا على ركبتيه. وانظر «لسان العرب»، مادة (جثا).

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (٨٧٤)، وابن ماجه في «سننه» (٨٩٧)، والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٩٩، ٢٣١)، وفي «السنن الكبرى» (١/ ٢٢٤، ٢٤٤، ٤٣٤)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ٣٩٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ١٢١)، والترمذي في «الشمائل المحمدية» (٢٦٢)، والطيالسي في «مسنده» (٤١٦)، وغيرهم من حديث حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه-. وهو حديث صحيح.

وقد صحَّحه العلامة الألباني -رحمه الله- في عدد من كتبه مثل «إرواء الغليل» (٢/ ٤٢)، و«مشكاة المصابيح» (١٢٠٠)، و«صفة الصلاة» (ص١٣٧)، و«صلاة التراويح» (ص١٢)، و«مختصر الشمائل» (ص١٥٠)، وغيرها من كتبه.

والغريم مُماطل مُخادع، وأنت مَطلوب بالكفالة، والغريم مطلوب بالحق، فأنْتَ تستعدي عليه حتىٰ تستخرج ما عليه من الحق؛ لتتخلص من المطالبة.

والقلب شريك النفس في الخير والشر، والثواب والعقاب، والحمد والذم.

والنفس من شأنها الإباق[1] والخروج من رقّ العبودية، وتضييع حقوق الله -عَزَّ وَجَلَّ- وحقوق العباد التي قبلها، والقلب شريكها إن قوي سلطانها وأسيرها، وهي شريكته وأسيرته إن قوي سلطانه.

فشُرع للعبد إذا رفع رأسه من السجود أن يجثو(٢) بين يدي الله تعالى مستعديًا علىٰ نفسه، مُعتذرًا من ذنبه إلى ربه ومِمَّا كان منها، راغبًا إليه أن يَرحمه ويغفر له ويهديه ويرزقه ويعافيه.

وهذه الخمس كلمات، قد جمعت جماع خير الدنيا والآخرة فإنَّ العبد مُحتاج بل مضطر إلى تَحصيل مصالحه في الدنيا وفي الآخرة، ودفع المضار عنه في الدنيا والآخرة، وقد تضمن هذا الدعاء ذلك كله.

فإنَّ الرزق يَجلب له مصالح دنياه وأخراه، ويَجمع رزق بدنه ورزق قلبه وروحه، وهو أفضل الرازقين.

- والعافية تدفع مضارَّها.
- والهداية تَجلب له مصالح أخراه.
- والمغفرة تدفع عنه مضار الدنيا والآخرة.
- والرَّحْمَة تَجمع ذلك كله.
- والهداية تعمُّ تفاصيل أموره كلها.

---

(١) الإباق: مصدر أَبَقَ يَأْبِق ويَأْبُق؛ أي: هرب. فمعنىٰ الإباق: الهروب.

(٢) يَجثو: اي يجلس علىٰ ركبتيه.

[الحكمة من تكرار السجود]

وشرعَ لَهُ أن يعودَ ساجدًا كما كان، ولا يكْتَفِي منه بسجدةٍ واحدة في الرَّكْعة كما اكتفىٰ منه بركوعٍ واحد؛ وذلك لفضل السجود وشرفه وقرب العبد من ربه وموقعه من الله -عَزَّ وَجَلَّ-، حتىٰ إنه أقرب ما يكون إلى ربه وهو ساجد.

وهو أشهر في العبودية وأعرق فيها من غيره من أركان الصلاة؛ ولهذا جُعِلَ خَاتمة الركعة، وما قبله كالمقدمة بين يديه، فمحله من الصلاة مَحل طواف الزيارة، وما قبله كالمقدمة بين يديه من التعريف[1] وتوابعه مقدمات بين يدي طواف الزيارة.

وكما أنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فكذلك أقرب ما يكون منه في المناسك وهو طائف، كما قال ابن عمر لِمن خَطب ابنته وهو في الطواف فلم يرد عليه، فلما فرغ من الطواف قال: «أتذكر أمرًا من أمور الدنيا ونَحن نتراءىٰ الله -سبحانه وتعالى- في طوافنا»[2].

(١) التعريف: هو الوقوف بعرفة في الحج. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (عرف).

(٢) هذا الأثر أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرىٰ» (٤/ ١٦٧) قال: أخبرنا محمد بن يزيد بن خُنيس قال: سمعتُ عبد العزيز بن أبي رواد قال: حدثني نافع أن عبد الله بن عمر أدركه عروة بن الزبير في الطواف فخطب إليه ابنته فلم يرد عليه ابن عمر شيئًا، فقال عروة: لا أراه وافقه الذي طلبتُ منه، لا جرم لأعاودنه فيها. قال نافع: فقدمنا المدينة قبله وجاء بعدنا فدخل علىٰ ابن عمر فسلَّم عليه فقال له ابن عمر: إنك أدركتني في الطواف فذكرتَ لي ابنتي ونحن نتراءىٰ الله بين أعيننا فذلك الذي منعني أن أجيبك فيها بشيء، فما رأيك فيما طلبت ألك به حاجة؟ قال: فقال عروة: ما كنتُ قط أحرص علىٰ ذلك منك الساعة، قال: فقال له ابن عمر: يا نافع ادع لي أخويها، قال فقال لي عروة: ومن وجدت من بني الزبير فادعه لنا، قال فقال ابن عمر: لا حاجة لنا بهم، قال عروة: فمولانا فلان، فقال ابن عمر: فذلك أبعد. فلما جاء أخواها حمد الله ابن عمر وأثنىٰ عليه ثم قال: هذا عندكم عروة وهو ممن قد عرفتما وقد ذكر أختكما =

ولِهذا والله أعلم جُعِلَ الركوع قبل السجود تدريجًا وانتقالاً من الشيء إلى ما هو أعلى منه.

[الحكمة من تكرار الأفعال والأقوال في الصلاة]

وشُرِعَ لَهُ تكرير هذه الأفعال والأقوال، إذ هي غذاء القلب والروح التي لا قوام لَهما إلاَّ بِها، فكان تكريرها بِمنزلة تكرير الأكل لقمة بعد لقمة حتى يشبع، والشرب نفسًا بعد نفس حتى يروى، فلو تناول الجائع لقمة واحدة ثم دفع الطعام من بين يديه فماذا كانت تغني عنه تلك اللقمة؟ وربَّما فتحت عليه باب الجوع أكثر مِمَّا به.

ولهَذا قال بعضُ السلف:

«مثل الذي يصلي ولا يطمئن في صلاته كمثل الجائع إذا قُدِّم إليه طعام فتناول منه لقمة أو لقمتين ماذا تُغني عنه ذلك؟»[1].

=

سودة فأنا أزوِّجه على ما أخذ الله به على الرجال للنساء، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وعلى ما يستحل به الرجال فروج النساء، لكذلك يا عروة؟ قال: نعم، قال: فقد زوجتكها على بركة الله. قال: قال عبد العزيز: قال لي نافع: فلما أولم عروة بعث إلى عبد الله بن عمر يدعوه، قال فجاء فقال له: لو كنت تقدمت إليَّ أمس لم أصم اليوم فما رأيك؟ أقعد أو أنصرف؟ قال: بل انصرف راشدًا. قال: فانصرف.

قلت: وإسناده رجاله ثقات.

وقد أخرج هذا الأثر أيضًا: أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٩)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٣٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٠/ ٢٧٠).

(١) لم أقف عليه من كلام السلف، وقد ورد حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ في معناه، الا وهو حديث أبي عبد الله الأشعري -رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً لا يتم ركوعه وينقر في سجوده وهو يصلي، فقال رسول الله ﷺ: «لو مات هذا على حاله هذه مات على غير ملة محمد ﷺ» ثم قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي لا يتم ركوعه وينقر في سجوده مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئًا».

=

وفي إعادة كل قول أو فعل من العبودية والقرب، وتَنْزيل الثانية مَنْزلة الشكر على الأولَى، وحصول مزيد خير وإيْمَان مِن فعلها، ومَعرفة وإقبال وقوة قلب، وانشراح صدر وزوال درنٍ[1] ووسخٍ عن القلب بِمَنْزلة غسل الثوب مَرَّة بعد مَرَّة.

فهذه حكمة الله التي بَهَرَت[2] العقول حكمته في خلقه وأمره، ودلَّت على كَمالِ رحمته ولطفه، وما لَم تُحِط به علمًا منها أعلى وأعظم وأكبر وإنَّما هذا يسير من كثير منها.

=

قال أبو صالح: فقلت لأبي عبد الله: من حدَّثك بهذا عن رسول الله ﷺ؟ قال: أمراء الأجناد: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة -رضي الله عنهم- أنهم سمعوه من رسول الله ﷺ.

وهذا الحديث أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٦٦٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧١٨٣، ٧٣٥٠)، وغيرهما من طريق: الوليد بن مسلم عن شيبة بن الأحنف الأوزاعي عن أبي سلام الأسود عن أبي صالح الأشعري عن أبي عبد الله الأشعري به.

وقد حسَّن الحديث كلٌّ من: المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب»، والهيثمي في «مجمع الزوائد»، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٢٨)، وفي «صحيح الجامع» (٥٤٩٢) وغيرها من كتبه.

قلت: لكنَّ في سنده شيبة بن الأحنف أبو النضر الشامي، لم يُوثَّق توثيقًا معتبرًا، فلم يوثقه إلا ابن حبان، وابن حبان معروف بتساهله الشديد في التوثيق.

وفي ترجمة شيبة بن الأحنف في «تهذيب الكمال» (١٢/ ٦٠٣): «... قال أبو حاتم: سمعت دحيمًا يقول: لم أسمع من الوليد بن مسلم من حديث شيبة بن الأحنف شيئًا. وقال عثمان بن سعيد الدارمي عن دحيم: كان الوليد يروي عنه ما سمعت أحدًا يعرفه».

قلت: فكيف نحسِّن حديث راوٍ لا يكاد يعرفه أحد، وأحسن أحواله أن يكون مَجهول الْحَال؟! فالذي أراه -والله أعلم- أن الحديث لا يرقى للحسن فضلاً عن الثبوت والصحة!.

(١) الدرن: هو الوسخ. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (درن).

(٢) بهرت: أي غلبت. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (بهر).

[أسرار الجلوس للتشهد والتحيات]

فلمَّا قضى صلاته وأكملها ولَم يبق إلاَّ الانصراف منها، فشرع لهُ الجلوسَ في آخرها بين يدي ربه مُثنِيًا عليه بِمَا هُوَ أهله، فأفضل ما يقول العبد في جلوسه هذه التحيات التي لا تصلح إلاَّ لله، ولا تليق بغيره.

ولَمَّا كان مِن عادة الملوك أن يُحَيُّوا بأنواع التحيات من الأفعال والأقوال المتضمنة للخضوع لَهم، والذل، والثناء عليهم وطلب البقاء، والدوام لَهم، وأن يَدوم ملكهم.

فمنهم: مَن يُحَيَّى بالسجود، ومنهم من يُحَيَّى بالثناء عليه.

ومنهم: من يُحَيَّى بطلب البقاء، والدوام له.

ومنهم: من يُجْمَعُ له ذلك كله فيُسجد له، ثُم يُثنى عليه، ثُم يُدعى له بالبقاء والدوام.

وكان الملك الحق المبين، الذي كل شيء هالك إلا وجهه سبحانه أولَى بالتحيات كلها من جَميع خلقه، وهي له بالحقيقة وهو أهلها.

ولهذا فُسِّرت التحيات بالملك، وفُسِّرت بالبقاء والدوام، وحقيقتها ما ذكرته، وهي تَحيات المُلك والمَلَك والمَليك.

فالله سبحانه هو المتصفُ بِجميع ذلك، فهو أوْلَى به، فهو سبحانه الْمَلك، وله الْمُلْك، فكل تحية يُحَيَّى بها ملك من سجود أو ثناء، أو بقاء، أو دوام فهي لله على الحقيقةِ.

ولهَذا أتى بها مَجموعةً معرَّفة بالألف واللام إرادة للعموم، وهي جَمع تَحية، تَحيا بِها الملوك، وهي «تَفْعُلة» من الحياة، وأصلها «تحيية» على وزن «تكرمة»، ثم أدغم إحدى اليائين في الآخر فصارت «تحيَّة» فإذا كان أصلها من

الحياة، والمطلوب منها لمن يُحَيَّى بها دوام الحياة، كما كانوا يقولون لِملوكهم: لك الحياة الباقية، ولك الحياة الدائمة.

وبعضهم يقول: عش عشرة آلاف سنة.

واشتق منها: أدام الله أيَّامَك أو أيامه، وأطالَ الله بقاءك.

ونَحو ذلك مِمَّا يُرادُ به دوام الحياة والمُلك.

فذلك جَميعه لا ينبغي إلاَّ لله الحي القيوم الذي لا يَموت.

الذي كُل مَلِكٍ سواه يَموت، وكل مُلْكٍ سوى مُلْكِهِ زائلٌ.

ثُم عَطَف عليها الصلوات بلفظ الجمع والتعريف؛ ليشمل ذلك كلَّما أُطْلِقَ عليه لفظ الصلاة خصوصًا وعمومًا، فكلُّها لله ولا تنبغي إلاَّ له، فالتحيات له ملكًا، والصلوات له عبودية واستحقاقًا، فالتحيات لا تكون إلاَّ لله، والصلوات لا تنبغي إلا له.

[الطيبات كلها لله وصفًا وملكًا]

ثُم عطف عليها بالطيبات، وهذا يتناول أمرين: الوصف، والملك.

فأمَّا الوصفُ: فإنَّهُ سُبحانه طيِّبٌ، وكلامه طيِّبٌ، وفعله كله طيب، ولا يصدر منه إلاَّ طيب، ولا يُضاف إليه إلاَّ الطيب، ولا يصعد إليه إلاَّ الطيب.

فالطيبات له وصفًا وفعلاً وقولاً ونسبةً، وكل طيب مُضاف إليه طيب، فله الكلمات الطيبات والأفعال، وكل مُضاف إليه كبيته، وعبده، وروحه، وناقته، وجنته دار الطيبين، فهي طيبات كلها.

وأيضًا فمعاني الكلمات الطيبات لله وحده، فإنَّها تتضمن تسبيحه، وتَحميده، وتكبيره، وتَمجيده، والثناء عليه بآلائه وأوصافه، فهذه الكلمات الطيبات التي يُثنى عليه بِهَا، ومعانيها له وحده لا شريك له:

كَسُبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، وتبارك اسْمُك، وتعالَىٰ جدك، ولا إلهَ غيرك.

وكَسُبحان الله، والحمد لله، ولا إلهَ إلاَّ الله، والله أكبر.

وسُبْحَان الله وبحمده، سُبْحان الله العظيم، ونَحو ذلك.

وكل طيب له وعنده ومنه وإليه، وهو طيب لا يقبل إلاَّ طيبًا، وهو إله الطيبين وربهم، وجيرانه في دار كرامته، هم الطيبون.

[أطيب الكلمات بعد القرآن]

فتأمل أطيب الكلمات بعد القرآن، كيف لا تنبغي إلاَّ لله؟ وهي:

سُبْحَانَ الله، والْحَمْدُ لله، ولاَ إلهَ إلاَّ الله، واللهُ أكْبَر، ولاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله.

فإنَّ «سُبْحَان الله» تتضمن تنْزيهه عن كل نقص وعَيْبٍ وسوء عن خصائص المخلوقين وشبههم.

وَ«الْحَمْدُ لله» تتضمن إثبات كل كمال له قولاً، وفعلاً، ووصفًا علىٰ أتمّ الوجوه، وأكملها أزلاً وأبدًا.

و«لاَ إلهَ إلاَّ الله» تتضمن انفراده بالإلهية، وأن كل معبود سواه باطل، وأنَّهُ وحده الإله الحق، وأن من تَـألَّـه[1] غيره فهو بِمَنْزلة من اتَّخذَ بيتًا من بيوت العنكبوت، يأوي إليه، ويسكنه من الحرِّ والبرد، فهل يغني عنه ذلك شيئًا.

و«اللهُ أكْبَر» تتضمن أنه أكبر من كلِّ شيء، وأجل، وأعظم، وأعز، وأقوىٰ، وأمـنع، وأقـدر، وأعلم، وأحـكم، فهذه الكلمات لا تصلح هي ومعانيها إلاَّ لله وحـــده.

[السلام على الأنبياء والصالحين]

ثُم شـرع لـه أن يسلم عـلىٰ سـائر عـباد الله الصالِحين، وهُم عباده الذين

---

(١) تألَّه: أي عَبَدَ.

اصطفى بعد الثناء، وتقديم الحمد لله فطابق ذلك قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]. وكأنه امتثال له.

وأيضًا فإن هذا تحية المخلوق فشُرعت بعد تحية الخالق وقُدِّمَ في هذه التحية أولَى الخلق بِهَا وهو النبي ﷺ، الذي نالت أمته على يده كل خير، وعلى نفسه، وبعده وعلى سائر عباد الله الصالِحين، وأخصهم بِهذه التحية الأنبياء والملائكة، ثُم أصحاب مُحمد ﷺ، وأتباع الأنبياء، مع عمومها كل عبد صالِح في السماء والأرض.

ثُم شرع له بعد هذه التحية السلام على من يستحق السلام عليه خصوصًا وعمومًا.

[الشهادتان]

ثُم شَرَع له أن يشهد شهادة الحق التي بُنيت عليها الصلاة، والصلاةُ حق من حقوقها، ولا تنفعه إلا بقرينتها وهي الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة، وختمت بِهَا الصلاة كما قال عبد الله بن مسعود:

«فإذا قلت ذلك فقد قضيت صلاتك، فإن شئت فقم وإن شئت فاجلس»[1].

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٩٧٠)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٤٢٢)، والدارمي في «سننه» (١٣٤١)، والدارقطني في «سننه» (١/ ٣٥٢، ٣٥٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٦١)، وغيرهم.
قلت: والصحيح أنه من كلام عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، وليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وإنما أُدرج في الحديث، وقد نصَّ على ذلك كثيرٌ من الحفَّاظ:
يقول الدارقطني -رحمه الله- في «سننه»: «ورواه زهير بن معاوية عن الحسن بن الحر، فزاد في آخره كلامًا وهو قوله: «إذا قلت هذا، أو فعلت هذا، فقد قضيت صلاتك، فإن شئت أن تقوم فقم، وإن شئت أن تقعد فاقعد»، فأدرجه بعضهم عن زهير في الحديث ووصله بكلام النبي ﷺ، وفصله شبابة عن زهير، وجعله من كلام عبد الله بن مسعود،

وهَذَا إمَّا أن يُحمل علىٰ انقضائها إذا فرغ منه حقيقةً، كما يقوله الكوفيون، أو علىٰ مقاربة انقضائها ومشارفته، كما يقول أهل الحجاز وغيرهم.

وعلىٰ التقديرين فجعلت شهادة الحق خاتمة الصلاة، كما شرع أن تكون هي خاتمة الحياة.

«فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[1].

=

وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه في حديث النبي ﷺ، لأن ابن ثوبان رواه عن الحسن بن الحر كذلك، وجعل آخره من قول ابن مسعود، ولاتفاق حسين الجعفي، وابن عجلان، ومحمد بن أبان في روايتهم، عن الحسن بن الحر علىٰ ترك ذكره في آخر الحديث، مع اتفاق كل من روىٰ التشهد عن علقمة وعن غيره عن عبد الله بن مسعود علىٰ ذلك، والله أعلم». انتهىٰ

ويقول البيهقي -رحمه الله- في «معرفة السنن والآثار»: «قال الشيخ أحمد: قد ذهب الحفاظ إلىٰ أن هذا وهم، وأن قوله: «إذا فعلت هذا، أو قضيت هذا، فقد قضيت صلاتك» من قول عبد الله بن مسعود، فأدرج في الحديث، ورواه شبابة بن سوار، عن أبي خيثمة، فميزه من الحديث، وجعله من قول عبد الله، ورواه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن الحسن بن الحر، فجعله من قول عبد الله...». انتهىٰ

ويقول في موضع آخر: «وقوله: «فإذا فعلت هذا، فقد قضيت صلاتك، فإن شئت أن تقوم فقم»، فقد ذكرنا أن الحفاظ من أهل الحديث حكموا بأن ذلك من كلام عبد الله، لتمييز بعض الرواة هذا الكلام من الحديث المرفوع، وإضافته إلىٰ عبد الله...» انتهىٰ.

ويقول الألباني -رحمه الله-: «شاذ بزيادة : «إذا قلت : ...» والصواب أنه من قول ابن مسعود موقوفًا عليه». انتهىٰ

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣١١٦)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣٣، ٢٤٧)، والحاكم في «مستدركه» (١/ ٣٥١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ١١٢)، والبزار في «البحر الزخار» (٢٦٢٦) وغيرهم من طريق: صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرة عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قلت: والحديث حسَّنه العلامة الألباني -رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٦٨٧) (٣/ ١٤٩، ١٥٠)، يقول -رحمه الله- بعد أن أورد الحديث: «وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

=

وكـذلك شرع للمتوضئ أن يَختتم وضوءه بالشهادتين، ثُم لَمَّـا قضىٰ صلاته أذن له أن يسأل حاجته.

وشرع له أن يتوسل قبلها بالصلاة علىٰ النبي ﷺ، فإنُها من أعظم الوسائل بين يدي الدعاء، كما في السنن عَن فُضالة بن عبيد، أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا دَعَا أحدكم فليبدأ بِحمد الله، والثناء عليه، وليصلِّ على رسوله ثُم ليسل حاجته»[1].

=

قلت -أي: الألباني-: ورجاله ثقات كلهم، غير صالـح بن أبي عـريب. قال ابن منده: «مصري مشهور».

وقال ابن القطان: «لا يُعرف حاله، ولا يُعرف من روىٰ عنه غير عبد الحميد بن جعفر».

قال الذهبي: «قلت: بلىٰ، روىٰ عنه حيوة بن شريح والليث وابن لهيعة، وغيرهم، له أحاديث، وثقه ابن حبان».

قلت -أي: الألباني-: فهو حسن الحديث إن شاء الله تعالىٰ». انتهىٰ

قلت: في تحسين إسناد هذا الحديث نظر والله تعالىٰ أعلم، وذلك:

أولاً: لأن صالح بن أبي عريب لم يُوثقه إمامٌ معتبر اللهم إلا ابن حبان، وابن حبان متساهل جدًا في التوثيق كما هو معلوم، فتوثيقه غير معتبر؛ إذ أنه يُوثِّق الضعفاء والمجاهيل، فصالحٌ هذا أحسن أحواله أن يكون مَجهول الحال.

ثانيًا: أن إمامًا مثل ابن القطان طعن في هذا الراوي بقوله: «لا يُعرف حاله»، وابن القطان إمامٌ معتبر في الجرح والتعديل، فكيف نُحسِّن حديث راوٍ لا يُعرف حاله!!.

ثالثًا: أن الشيخ الألباني -رحمه الله- حسَّن إسناده جريًا منهُ علىٰ قاعدته -التي عُرفت عنه- فيمن وثَّقه ابن حبان، وروىٰ عنه جماعة من الثقات، فهو حسن الحديث!!، وهذه القاعدة لم تُسلَّم له -رحمه الله-، بل قد خُولف فيها.

وأما تصحيح الحاكم للإسناد فهذا من تساهله الشديد المعروف عنه -رحمه الله-!، فكم من حديث واهٍ قال عنه: «صحيح الإسناد»!!.

هذا وللحديث شواهد أخرىٰ، وبعضها إسناده صحيح، والله تعالىٰ أعلم.

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (١٤٨١)، والترمذي في «سننه» (٣٤٧٧)، وأحمد في «مسنده» (٦/١٨)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٦٠)، وابن خزيمة في «صحيحه» =

ثُم جعلَ الدُّعاء آخر الصلاة كالختم عليها.

فجاءت التحيات على ذلك، أولها حَمْدُ لله والثناء عليه، ثُمَّ الصلاة على رسوله، ثُم الدعاء آخر الصلاة، وأذنَ النبي ﷺ للمصلي بعد الصلاة عليه أن يتخير مِنَ المسألة ما يشاء.

[السنن الخمس فِي إجابة المؤذن]

ونظير هذا ما شرع لِمن سمع الآذان:

١) أن يقول كما يقول المؤذن[1].

=

(٧١٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٣٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ١٤٧-١٤٨)، وفي «شعب الإيمان» (٣١٣٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٣٠٧، ٣٠٨)، وإسماعيلَ القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (١٠٦)، وغيرهم من حديث فضالة بن عبيد -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

والحديث صحَّحه كثير من أهل العلم: منهم الترمذي حيث قال: «هذا حديث حسن صحيح»، والحاكم حيث قال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

وفي موضع آخر قال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا تعرف له علة، ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح على شرطهما»، وصححه أيضًا ابن خزيمة، وابن حبان بإيرادهما للحديث في صحيحيهما، وصححه العلامة الألباني أيضًا في مواضع عديدة من كتبه.

قلت: والذي أراه -والله أعلم- أن إسناده لا يرقى إلى الصحة وإنما هو من قبيل الحسن الذي لا بأس به، وذلك لحال حميد بن هاني أبو هانئ الخولاني المصري، فقد قال فيه أبو حاتم: «صالح».

وقال النسائي: «ليس به بأس». وذكره ابن حبان في الثقات في التابعين.

وقال الدارقطني: «لا بأس به ثقة». وقال ابن عبد البر: «هو عندهم صالح الحديث لا بأس به». وانظر «تهذيب التهذيب» (٣/ ٥٠، ٥١).

(١) كما في «صحيح البخاري» (٥٨٦)، و«صحيح مسلم» (٣٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن**».

٢) وأن يقول: رضيتُ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبِمحمدٍ رسولاً[1].

٣) وأن يسأل الله لرسوله الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه المقام المحمود[2].

٤) ثُم ليصلِّ عليه[3].

٥) ثُم يسأل حاجته[4].

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٣٨٦) من حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيتُ بالله ربًا، وبمحمدٍ رسولاً، وبالإسلام دينًا، غُفر له ذنبه».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٤٤٤) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته حلَّت له شفاعتي يوم القيامة».

(٣) كما في «صحيح مسلم» (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنه من صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنَّها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة».

(٤) كما في «سنن أبي داود» (٥٢٤) عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن المؤذنين يفضلوننا، فقال رسول الله ﷺ: «قُلْ كما يقولون، فإذا انتهيت فسلْ تُعطه».

وهذا الحديث أخرجه أيضًا: أحمد في «مسنده» (٢/ ١٧٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ١٦) (٩٨٧٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١/ ٤١٠)، وابن حبان في «صحيحه» (١٦٩٦) وغيرهم من طريق: حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله ابن عمرو -رضي الله عنهما- به.

وقد حسَّنه العلامة الألباني -رحمه الله- في عدة مواضع من كتبه، وفي مواضع أخرىٰ صحَّحه.

وقال في «الثمر المستطاب» (ص١٩٥): «وهذا سند حسن، وقد حسَّن هذا الإسناد المنذري في «الترغيب» مرارًا، وكذا الهيثمي، وصححه الحاكم في غير ما حديث =

فهذه خَمْس سُنن في إجابة المؤذن لا ينبغي الغفلة عنها.

=

ووافقه الذهبي. وقد أشار في ترجمة حيي بن عبد الله من «الميزان» إلى أنه صحيح الحديث. والحق أنه حسن الحديث فإنه قد تكلم فيه بعضهم كما ذكر هو في «الميزان» وغيره في غيره».

قلت: وفي تحسين هذا الإسناد نظر؛ بل الصواب أنه إسناد ضعيف؛ وذلك لأن فيه حيي بن عبد الله وهو ابن شريح المعافري الحبلي أبو عبد الله المصري، قال فيه الإمام أحمد: «أحاديثه مناكير». وقال النسائي: «ليس بالقوي». وقال ابن معين: «ليس به بأس». وقال البخاري: «فيه نظر».

قلت: وهذا جرح شديد من الإمام البخاري -رحمه الله- كما هو معلوم من مقصوده بهذا الاصطلاح، يقول الذهبي في «الميزان» مبينًا مقصود البخاري -رحمه الله- بهذا الاصطلاح في (ترجمة عبد الله بن داود الواسطي): «قال البخاري: فيه نظر، ولا يقول هذا إلا فيمن يتهمه غالبًا». انتهىٰ.

قلت: فكيف يُحسَّن حديث حيي بن عبد الله بعد هذا الجرح الشديد؟!. فالذي أراه -والله تعالىٰ أعلم- أن هذا الإسنادَ ضعيفٌ.

فصل

[فِي أن روح الصلاة هو إقبال العبد على الله]

وسرُّ الصلاة وروحها ولبُّها، هو إقبالُ العبدُ علىٰ الله بكلِّيته فيها، فكما أنَّهُ لا ينبغي أن يصرف وجـهه عـن القبلة إلَىٰ غـيرها فيـها، فكذلك لا ينبغي له أن يصرف قلـبه عن ربه إلى غيره فيها.

بل يَجعل الكعبة -التي هي بيت الله- قبلة وجهه وبدنه، ورب البيت -تبارك وتعالى- قبلة قلبه وروحه.

وعلىٰ حسب إقبال العبد علىٰ الله في صلاته، يكون إقبال الله عليه، وإذا أعرض أعرضَ الله عنه، وكما تَدينُ تُدان.

[منازل الإقبال على الله فِي الصلاة]

والإقبال في الصلاة على ثلاثة منازل:

* **الأول**: إقبال العبد علىٰ قلبه فيحفظه ويصلحه من أمراض الشهوات، والوساوس، والخطرات المبطلةِ لثواب صلاته أو المنقصةِ لَها.

* **والثاني**: إقباله علىٰ الله بمراقبته فيها حتىٰ يعبده كأنه يَراه.

* **والثالث**: إقباله علىٰ معاني كلام الله، وتفاصيله وعبودية الصلاة ليعطيها حقها من الخشوع والطمأنينة وغير ذلك.

فباستكمال هذه المراتب الثلاث يكون قد أقام الصلاة حقًّا، ويكون إقبال الله علىٰ المصلي بحسب ذلك.

[كيفية الإقبال على الله في كل جزءٍ من أجزاء الصلاة]

فإذا انتصب العبدُ قائمًا بين يديه، فإقباله علىٰ قيُّومية الله وعظمته فلا يتلفت يَمْنةً ولا يسرة.

وإذا كَبَّر الله تعالى كان إقباله علىٰ كبريائه وإجلاله وعظمته.

وكان إقباله علىٰ الله في استفتاحه علىٰ تسبيحه والثناء عليه وعلىٰ سُبُحات وجهه[1]، وتنْزيهه عمَّا لا يليق به، ويُثني عليه بأوصافه وكماله.

فإذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، كان إقباله علىٰ ركنه الشديد، وسلطانه وانتصاره لعبده، ومنعه له منه وحفظه من عدوه.

وإذا تَلىٰ كلامه كان إقباله علىٰ معرفته في كلامه كأنَّهُ يراه ويشاهده في كلامه فهو كما قال بعضُ السلف: «لقد تَجَلَّىٰ الله لعباده في كلامه»[2].

والناس في ذلك علىٰ أقسام ولَهُم في ذلك مشارب، وأذواق، فمنهم البصير، والأعور، والأعمىٰ، والأصم، والأعمش، وغير ذلك، في حال التلاوة والصلاة.

فهو في هذه الحال ينبغي له أن يكون مُقبلاً علىٰ ذاته وصفاته وأفعاله وأمره ونَهيه وأحكامه وأسْمَائه.

وإذا ركعَ كان إقباله علىٰ عظمة ربه، وإجلاله وعزه وكبريائه، ولهذا شرع له في ركوعه أن يقول: «سُبحان ربِّي العظيم».

فإذا رفع رأسه من الركوع كان إقباله علىٰ حَمد ربه والثناء عليه وتَمجيده وعبوديته له وتفرده بالعطاء والمنع.

---

(١) سبُحات وجهه: أي نوره وجلاله وبهاؤه. وانظر «شرح النووي علىٰ صحيح مسلم» (٢/ ١٨- ط- الحديث).

(٢) لم أقف عليه من كلام السلف.

فإذا سَجد، كان إقباله على قربه، والدنو منه، والخضوع له والتذلل له، والافتقار إليه، والانكسار بين يديه، والتملق[١] له.

فإذا رفع رأسه من السجود جثى على ركبتيه، وكان إقباله على غنائه وجوده، وكرمه وشدة حاجته إليهن، وتضرعه بين يديه والانكسار، أن يغفر له ويرحمه، ويعافيه ويَهديه ويرزقه.

فإذا جلس في التشهد فله حال آخر، وإقبالٌ آخر يُشبه حال الحاج في طواف الوداع، واستشعر قلبه الانصراف من بين يدي ربه إلى أشغال الدنيا والعلائق[٢] والشواغل التي قطعه عنها الوقوف بين يدي ربه، وقد ذاق قلبه التألم والعذاب بِهَا قبل دخوله في الصلاة، فباشر قلبه روح القرب، ونعيم الإقبال على الله تعالَى، وعافيته منها وانقطاعها عنه مُدة الصلاة، ثُم استشعر قلبه عوده إليها بِخروجه من حمى الصلاة، فهو يَحمل هَمَّ انقضاء الصلاة وفراغه منها ويقول: ليتها اتصلت بيوم اللقاء.

ويعلم أنه ينصرف مِنْ مُنَاجاة مَنْ كُل السعادة في مناجاته، إلى مُناجاة من كان الأذى والْهَم والغم والنكد في مُناجاته، ولا يشعر بِهذا وهذا إلاَّ من قلبه حي معمور بذكر الله ومَحبته، والأنس به، وَمَنْ هو عالِمٌ بِمَا في مُناجاة الخلق ورؤيتهم، ومُخالطتهم من الأذى والنكد، وضيق الصدر، وظلمة القلب، وفوات الحسنات، واكتساب السيئات، وتشتيت الذهن عن مُناجاة الله تعالى -عَزَّ وَجَلَّ-.

***

---

(١) التملق: هو التودد والتلطف.

(٢) العلائق: جمع عَلاَقة وهي كل ما يتعلق به الإنسان من أمور الدنيا.

[الإسلام مشتق من التسليم]

ولَمَّا كان العبدُ بينَ أمرين من ربه -عَزَّ وَجَلَّ-:

أحدهما: حُكم الرب عليه في أحواله كلها ظاهرًا وباطنًا، واقتضاؤه من القيام بعبودية حكمه، فإن لكل حكم عبودية تَخصه، أعني الحكم الكوني القدري.

والثاني: فعل، يفعله العبد عبودية لربه، وهو موجب حكمه الديني الأمري.

وكلا الأمرين يوجبان بتسليم النفس إلى الله سبحانه؛ ولِهَذا اشتق له اسم الإسلام من التسليم؛ فإنه لَمَّا سلم لحكم ربه الديني الأمري، ولحكمه الكوني القدري، بقيامه بعبودية ربه فيه لا باسترساله معه في الهوى، والشهوات، والمعاصي، ويقول: قدَّر علي، استحق اسم الإسلام فقيل له: مسلم.

[ثمرة الصلاة وثوابها ومنزلتها]

ولَمَّا اطمأن قلبه بذكر الله، وكلامه، ومَحبته وعبوديته سكن إلى ربِّه، وقَرُبَ منه، وقرَّت به عينه[1] فنال الأمان بإيمانه، ونال السعادة بإحسانه، وكان قيامه بِهذين الأمرين أمرًا ضروريًّا له لا حياة له، ولا فلاحَ ولا سعادة إلاَّ به.

ولَمَّا كان مَا بُلِيَ به من النفس الأمَّارة، والْهَوىٰ المقتضي لِمرادها، والطباع المطالبة، والشيطان المغوي، يقتضون منه إضاعة حظه من ذلك، أو نقصانه، اقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم أن شَرَعَ له الصلاة مُخلِفَة عليه ما ضاع عليه من ذلك، رادَّةً عليه ما ذهب منه، مُجددة له ما ذهب من عزمه وما فقده، وما أَخْلِقَ[2] من إيمانه، وجعل بين كل صلاتين برزخًا[3] من الزمان حكمة

---

(١) أي: لم تعد تطمح وتتطلع إلى شيء سواه.

(٢) أُخْلِقَ: أي بَلِي وتَلِفَ. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (خلق).

(٣) البرزخ: هو الحاجز بين الشيئين. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (برزخ).

ورحمة، ليُجمّ[1] نفسه، ويَمحو بِهَا ما يكتسبه من الدرن[2] وجعل صورتها على صورة أفعاله، خشوعًا وخضوعًا وانقيادًا وتسليمًا وأعطى كل جارحة من جوارحه حظًّها من العبودية.

* وجعل ثَمرتها وروحها إقباله على ربه فيها بكليته.

* وجعل ثوابها وجزاءها القرب منه، ونيل كرامته في الدنيا والآخرة.

* وجعل منْزلتها ومحلها الدخول عليه -تبارك وتعالى-، والتزين للعرض عليه تذكيرًا بالعرض الأكبر عليه يوم القيامة.

[ثمرات العبادات]

وكما أن الصوم ثَمرته تطهير النفس، وثمرة الزكاة تطهير المال، وثمرة الحج وجوب المغفرة، وثمرة الجهاد تسليم النفس إليه، التي اشتراها سبحانه من العباد، وجعل الجنة ثَمنها؛ فالصلاة ثَمرتها الإقبال على الله، وإقبال الله سبحانه على العبد، وفي الإقبال على الله في الصلاة جميع ما ذكر من ثمرات الأعمال، وجميع ثَمرات الأعمال في الإقبال على الله فيها.

[الصلاة قُرَّة عيون المحبين]

ولِهذا لَم يقل النبي ﷺ: جُعِلَت قرة عيني في الصوم، ولا في الحج والعمرة، ولا في شيء من هذه الأعمال، وإنّما قال: «وجُعِلَت قُرَّة عيني في الصلاة»[3].

---

(١) ليُجِمَّ نفسه: أي يريحها من التعب والعناء. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (جمم).

(٢) الدرن: الوسخ.

(٣) أخرجه النسائي في «المجتبىٰ» (٧/ ٦١)، وفي «السنن الكبرىٰ» (٨٨٨٧)، وفي كتابه «عشرة النساء» (١، ٢)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٢٠٣، ٥٧٧٢)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (٣٤٨٢، ٣٥٣٠)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٧/ ٧٨)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٠٥)، والعقيلي

في «الضعفاء» (٢/ ١٦٠)، وابن سعد في «الطبقات الكبرىٰ» (١/ ٣٩٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ١٠٥)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص١١٩)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٢٢) وغيرهم من طريق: سلام أبي المنذر عن ثابت عن أنس -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

- هذا وقد تُوبع سلام على هذا الحديث عن ثابت، تابعه كلٌّ من:

١] جعفر بن سليمان: كما عند الحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٧٤)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٨/ ٧٨)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (٨٨٨٨).

٢] سلام بن أبي خبزة: كما عند ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٠٣).

قلت: ولكن هذه المتابعات متابعات ضعيفة غير ثابتة، وكأنه -والله أعلم- لذلك قال الإمام الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥/ ٢٤١): «لم يرو هذا الحديث عن ثابت إلا سلامٌ أبو المنذر». انتهىٰ

هذا وقد اختلف العلماء في صحة هذا الحديث وضعفه: فرأىٰ فريقٌ من أهل العلم صحته وثبوته، ورأىٰ فريقٌ آخر ضعفه ووهنه.

* أولاً: الفريق الذي يرى صحته وثبوته:

١] الإمام الحاكم -رحمه الله-، فقد قال عقب إخراجه للحديث: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه». انتهىٰ

٢] الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، فقد قال في «التلخيص الحبير» (٣/ ١١٦): «رواه النسائي، وإسناده حسن» انتهىٰ. وقال في «فتح الباري» (١١/ ٣٤٥): «أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح». انتهىٰ

٣] الحافظ العراقي -رحمه الله-، فقد قال في «تخريج الإحياء» (٢/ ٣٢): «رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد، ...». انتهىٰ

٤] العلامة الألباني -رحمه الله-، فقد صحَّحه في «صحيح الجامع» (٣١٢٤)، وحسَّنه في «المشكاة» (٥٢٦١).

٥] الشيخ شعيب الأرناؤوط فقد قال في تحقيقه لمسند الإمام أحمد: «إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سلام أبي المنذر فهو صدوق حسن الحديث». انتهىٰ

٦] الشيخ حسين سليم أسد في تحقيقه لمسند أبي يعلىٰ، فقد قال: «إسناده حسن». انتهىٰ

* ثانيًا: الفريق الآخر الذي يرى ضعف الحديث وعدم صحته:
١] الإمام العقيلي -رحمه الله-، فقد قال في كتابه «الضعفاء» (٤/ ٤٢٠): «هذا يرويه سلام الطويل عن ثابت عن أنس، وسلام فيه لين». انتهىٰ
قلت: وقد نقل العلامة الألباني -رحمه الله- هذه العبارة عن العقيلي كما في «السلسلة الصحيحة» (١١٠٧) ثم ردَّ عليه قائلاً: «بل هو متروك متهم بالكذب، لكن ليس هو صاحب هذا الحديث، وإنما هو القاري، كما صرَّحت به رواية ابن نصر المذكورة». انتهىٰ
٢] الإمـام الشوكاني -رحـمه الله-، فقد ذكـره في كـتابه «الفوائد المجموعـة في الأحاديث الموضوعة» (ص١٢٥) وقال: «ضعَّفه العقيلي». انتهىٰ
٣] شيخنا الجليل مصطفىٰ العدوي -حفظه الله ورعاه-، فقد ذكر الحديث في كتابه «جامع أحكام النساء» (٣/ ١٣، ١٤) ثم عقَّب عليه بقوله: «في إسناده كلام». انتهىٰ
وقال في الحاشية: «اختـلف في تحـديد سـلام أبي المـنذر، فمن قائل: إنه ابن أبي الصهباء كما نص عليه في «الزهد» لابن أبي عاصم، وكما ورد عند الدارقطني في «العلل»، وابن عدي في «الكامل» حيث أورد الحديث في ترجمة ابن أبي الصهباء، ومن قائل: إنه ابن سليمان، والذين مالوا إلىٰ أنه ابن سليمان لم يوردوا نصًّا في سند الحديث يفيد ذلك، ولكن تصرفهم حيث أوردوا الحديث في ترجمة ابن سليمان أشعر بذلك، وكذلك كون الحديث موجودًا في بعض الكتب الستة ولم يورد في التهذيب ترجمة لابن أبي الصهباء، فكان هذا منهما جنوحًا إلىٰ أنه ابن سليمان.
وعلىٰ أية حال كان سلام فالحديث مما جاء في مناكيره سواء كان ابن سليمان أو ابن أبي الصهباء.
وقد تُوبع سلام من جعفر بن سليمان، عن ثابت، ورواية جعفر عن ثابت مضعَّفة والطريق إليها فيها سيار بن حـاتم وفيـه كلام انظر النسـائي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٦٢)، والحاكم (٢/ ١٦٠).
وتُوبع أيضًا من سلام بن أبي خيرة وهو منكر الحديث.
وإضافة إلىٰ ما ذُكر فقد أعله الدارقطني بالإرسال.
ولبعض فقراته وهي «جعلت قرة عيني في الصلاة» شاهد فيه ضعف، وذلك عند الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٧٢)، والطبراني في «الصغير» (١/ ٢٦٢).
وله شاهد عند ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٠٤) من حديث عائشة -رضي الله عنها-، وفيه رجل مبهم.
=

[الحكمة من قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»، ولَم يقل: «بالصلاة»]

وتأمل قوله: «وجُعِلَت قُرة عيني في الصلاة»، ولَم يقل: «بالصلاة»، إعلامًا منه بأن عينه لا تقرُّ إلا بدخوله كما تقر عين المحب بملابسته لِمحبوبه، وتقر عين الخائف بدخوله في مَحل أنسه وأمنه، فقرة العين بالدخول في الشيء أتم وأكمل مِنْ قُرَّة العين به قبل الدخول فيه.

ولَمَّا جاء إلى راحة القلب من تعبه ونصبه قال: «يا بلال أرحنا بالصلاة»(1).

=

وشاهد آخر واهٍ مرسل عن ليث عن رسول الله ﷺ عند عبد الرزاق (المصنف ٤/ ٣٢١).

هذا، وسلام بن سليمان أبو المنذر أحسن حالاً من ابن أبي الصهباء، فسلام بن سليمان قد ينشط الشخص لتحسين حديثه، أما ابن أبي الصهباء فمنكر الحديث، والله أعلم» انتهىٰ.

قلت: وقد رجَّح العلامة الألباني -رحمه الله- أنه سلام بن سليمان المزني أبو المنذر القاري، وذلك اعتمادًا منه علىٰ رواية محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٢٢) فقد صرح فيها بأنه القاري.

قلت: وهذه بعض أقوال أهل العلم فيه:

قال ابن معين: لا بأس به. وقال ابن الجنيد: سألت ابن معين عنه: ثقة هو؟ قال: لا. وقال ابن أبي حاتم: صدوق صالح الحديث. وقال أبو داود: ليس به بأس. وقال الساجي: صدوق يهم ليس بمتقن في الحديث. وقال ابن حجر: صدوق يهم.

هذا وللحديث شواهد ومتابعات أخرىٰ، قد يرقىٰ بها الحديث إلىٰ الثبوت، وقد أوردها جميعها العلامة الألباني -رحمه الله- في «السلسلة الصحيحة» (١١٠٧، ١٨٠٩، ٣٢٩١، ٣٣٢٩) فانظرها مشكورًا.

(1) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ٣٦٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٢٧٦، ٢٧٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٩٦)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٤٤٢) وغيرهم عن علي بن أبي طالب، وعن رجل من الصحابة لم يسم، وعن بلال -رضي الله عنهم جميعًا-.

=

أي: أقمها لنستريح بها من مقاساة الشواغل كما يستريح التعبان إذا وصل إلى مأمنه، ومنْزله وقرَّ فيه، وسكنَ وفارق ما كان فيه من التعب والنَّصَب.

[الحكمة من قوله ﷺ: «أرحنا بالصلاة»، ولم يقل: «أرحنا منها»]

وتأمل كيف قال: «أرحْنَا بالصَّلاَة»، ولَم يَقُل: «أرحْنا منها»، كما يقوله المتكلف الكاره لَهَا، الذي لا يصليها إلاَّ على إغماض[1] وتكلف، فهو في عذاب ما دام فيها، فإذا خرج منها وجد راحة قلبه ونفسه؛ وذلك أنَّ قلبه مُمتلئ بغيره، والصلاة قاطعة له عن أشغاله ومَحبوباته الدنيوية، فهو مُعذب بِهَا حتى يَخرج منها، وذلك ظاهرٌ في أحواله فيها، مِن نقرها، والتفات قلبه إلى غير ربه، وترك الطمأنينة والخشوع فيها.

ولكن قد عَلِمَ أنَّهُ لابدَّ له من أدائها، فهو يؤديها على أنقص الوجوه، قائل بلسانه ما ليس في قلبه ويقول بلسان قلبه: حتى نُصلي فنستريح من الصلاة، لا بِهَا.

فهذا لونٌ وذاك لونٌ آخر.

ففرقٌ بين مَنْ كَانت الصلاةُ لِجوارحه قيدًا ثقيلاً، ولقلبه سَجْنًا ضيِّقًا حرجًا، ولنفسه عائقًا.

=

قلت: وقد صحَّح الحديث الحافظ العراقي -رحمه الله- في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١١٨)، والعلامة الألباني -رحمه الله- في «صحيح الجامع» (٧٨٩٢).

وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند: «رجاله ثقات لكن اختلف على سالم بن أبي الجعد في إسناده» انتهى.

قلت: وقد ذكر هذا الاختلاف الإمام الدارقطني -رحمه الله- في كتابه «العلل» (٤/ ١٢٠، ١٢١)، فانظره مشكورًا.

(١) إغماض: أي مساهلة ومسامحة وخمول. وانظر «لسان العرب»، مادة (غمض).

وبين مَنْ كانت الصلاة لقلبه نعيمًا، ولعينه قُرَّة، ولجوارحه راحة، ولنفسه بُستانًا ولَذَّة.

فالأول: الصلاة سجن لنفسه، وتقييد لجوارحه عن التورط في مساقط الهلكات، وقد ينالُ بِهَا التكفير والثواب، أو ينالُ من الرَّحْمَة بِحَسْبِ عبوديته لله تعالىٰ فيها، وقد يُعاقب علىٰ ما نقص منها.

والقسمُ الآخر: الصلاة بُستان له، يَجد فيها راحة قلبه، وقُرَّة عينه، ولذَّة نفسه، وراحة جوارحه، ورياض روحه، فهو فيها في نعيم يتفكَّه[1]، وفي نعيم يتقلَّب يوجب له القرب الخاص والدنو، والْمَنْزلة العالية من الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ويُشارك الأولين في ثوابهم، بل يَختص بأعلاه، وينفرد دونهم بعلو المنزلة والقُربة، التي هي قدر زائد علىٰ مُجرد الثواب.

ولهذا تَعِدُ الملوك مَنْ أَرْضَاهُم بالأجر والتقريب، كما قال السحرة لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣]. ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]. فوعدهم بالأجر والقُرب، وهو علو الْمَنْزِلَة عنده.

[مثلٌ للغافل في صلاته والخاشع فيها]

فالأول: مَثَلُهُ مَثل عبد دخل الدار، دار الملك، ولكن حِيلَ بينه وبين رب الدار بستر وحجاب، فهو مَحجوبٌ من وراء الستر فلذلك لَم تقر عينه بالنظر إلى صاحب الدار والنظر إليه؛ لأنَّه مَحجوبٌ بالشهوات، وغيوم الهوىٰ ودُخان النَّفس، وبُخار الأماني، فالقلبُ منه بذلك وبغيره عليل[2]، والنفس مُكبَّة علىٰ ما تَهواه، طالبةً لحظها العاجل.

(١) أي: تطيب نفسه، والفَكِهُ هو طيب النفس. ويُقال: تَفكَّهْتُ بالشيء؛ أي: تَمتعت به. وانظر «لسان العرب»، مادة (فكه).

(٢) عليل: أي مريض، والعِلَّة هي المرض. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (علل).

فلهذا لا يريد أحد من هؤلاء الصلاة إلاَّ على إغماض، وليس له فيها راحة، ولا رغبة ولا رهبة فهو في عذابٍ حتى يَخرج منها إلى ما فيه قرة عينه من هواه ودُنياه.

والقسمُ الآخر: مَثَلُهُ كمثل رجل دخل دار الملك، ورفع الستر بينه وبينه، فقرّت عينه بالنظر إلى الملك، بقيامه في خدمته وطاعته، وقد أتحفه الملك بأنواع التُّحف، وأدْنَاهُ وقرَّبه، فهو لا يُحب الانصراف من بين يديه، لِمَا يَجده مِنْ لَذّةِ القربِ وقُرَّة العين، وإقبال الملك عليه، ولذّة مُناجاة الملك، وطيب كلامه، وتذلله بين يديه، فهو في مزيد مُناجاة، والتحف وافدة عليه مِن كلٍّ جهة ومكان، وقد اطمأنت نفسه، وخشع قلبه لربه وجوارحه، فهو في سرورٍ وراحةٍ يعبد الله كأنه يَراه، وتَجلّى له في كلامه، فأشد شيءٍ عليه انصرافه مِنْ بَيْنَ يديه، والله الموفق المرشد المعين.

فهذه إشارة ونبذة يسيرة في ذوق الصلاة، وسر من أسرارها وتجلٍّ من تَجلياتِها.

فصل

[في الفرق بين أهل السماع وأهل الصلاة]

فنحنُ نناشد أهل السماع بالله الذي لا إله إلا هو، هل يَجدونَ في سماعهم مثل هذا الذوق أو شيء منه؟

بلْ نُناشدهم بالله، هل يدعهم السماع يَجدون بعض هذا الذوق في صلاتهم أو جزءًا يسيرًا منها؟

بل هل نَشِقوا[1] من هذا الذوق رائحة، أو شَموا منه شمة قط؟

ونحن نَحلف عنهم أنَّ ذوقهم في صلاتهم وسماعهم ضد هذا الذوق، ومشربهم ضد هذا المشرب.

ولولا خشية الإطالة لذكرنا نُبذة من ذوقهم في سماعهم، تدلُّ على ما ورائها، ولا يَخفىٰ علىٰ من له أدْنَىٰ عقل، وحياة قلب، الفرق بين ذوق الآيات، وذوق الأبيات.

وبين ذوق القيام بين يدي رب العالَمين، والقيام بين يدي المغنين، وبين ذوق اللذة والنعيم بمعاني ذكر الله تعالى والتلذذ بكلامه، وذوق معاني الغناء، والتطريب الذي هو رقية الزنا، وقرآن الشيطان، والتلذذ بِمضمونها.

فما اجتمعَ والله الأمران في قلب إلا وطرد أحدهما الآخر، «ولا تَجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله -عَزَّ وَجَلَّ- عند رجلٍ واحد أبدًا»[2]، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

---

(١) نَشِقوا: أي شَمُّوا. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (نشق).

(٢) وهذا جزء من حديث أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٩٤٣، ٣٥٢٣)، ومسلم في

فصل

[في الفرق بين ذوق المتقدمين وذوق المتأخرين]

فمتى تجيء الأذواق الصحيحة المستقيمة إلى قلوب قد انحرفت أشد الانحراف عن هدي نبيها ﷺ، وتركت ما كان عليه هو وأصحابه والسلف الصالح؛ فإنَّهم كانوا يَجدون الأذواق الصحيحة المتصلة بالله -عَزَّ وَجَلَّ- في الأعمال:

الصلاة المشروعة، وفي قراءة القرآن وتدبره واستماعه، وأجر ذلك، وفي مزاحمة العلماء بالركب، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الحب في الله والبغض فيه، وتوابع ذلك.

فصار ذوق المتأخرين -إلاَّ من عصمه الله- في اليراع[1] والدُّف، والمواصيل، والأغاني المطربة من الصور الحسان والرقص، والضجيج، وارتفاع الأصوات، وتعطيل ما يُحبه الله ويرضاه من عبادته المخالفة لِهَوىٰ النفوس.

=

«صحيحه» (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة أن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- خطب بنت أبي جهل وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي ﷺ فقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكحًا ابنة أبي جهل. قال المسور: فقام النبي ﷺ فسمعته حين تشهد ثم قال: «أما بعد فإني أنكحتُ أبا العاص ابن الربيع فحدَّثني فصدقني، وإن فاطمة بنت محمد مضغة مني، وإنما أكره أن يفتنوها، وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدًا». قال: فترك عليٌّ الخطبة.

(١) اليَرَاع: جَمع يَرَاعة وهي القصبة، أو مزمار الراعي. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (يرع)، و«لسان العرب»، مادة (يرع).

فشتّان بين ذوق الألحَان، وذوق القرآن وبين ذوق العود والطنبور[1]، وذوق المؤمنين والنُور، وبين ذوق الزَمر[2] وذوق الزُمر[3]، وبين ذوق الناي وذوق ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١].

وبين ذوق المواصيل والشبابات، وذوق يس والصافات، وبين ذوق غناء الشعر وذوق سورة الشعراء، وبين ذوق سماع المكاء والتصدية[4] وذوق الأنبياء.

وبين الذوق على سماع تُذكر فيه العيون السود والخصور والقدود[5]، وذوق سماع سورة يونس وهود، وبين ذوق الواقفين في طاعة الشيطان على أقدامهم صواف[6]، وذوق الواقفين في خدمة الرحمن في سورة الأنعام والأعراف.

وبين ذوق الواجدين على طرب المثالث والمثاني، وذوق العارفين عند استماع القرآن العظيم والسبع المثاني.

وبين ذوق أولي الأقدام الصافات في حظيرة سماع الشيطان، وذوق أصحاب الأقدام الصافات بين يدي الرحمن.

سُبْحَان الله! هكذا تنقسم المواجيد ويتميز خُلق المطرودين مِنْ خُلق العبيد.

وسبحان الممد لِهؤلاء وهؤلاء من عطائه والمفارق بينهم في الكرامة يوم القيامة، فوالله لا يَجتمع مَحبة سماع قرآن الشيطان ومُحب سماع كلام الرحمن في قلب رجل واحد أبدًا.

---

(١) الطُنْبُور: الذي يُلعب به، وهو من آلات اللهو والطرب، مُعَرَّب فارسي، وقد استعمل في العربية. وانظر «لسان العرب»، مادة (طنبر).
(٢) والزَمْرُ يكون بالمزمار وهي الآلة المعروفة.
(٣) أي: سورة الزُمر.
(٤) المُكاء: الصفير. والتصدية: التصفيق بالأيدي. وانظر «لسان العرب»، مادة (مكا).
(٥) القُدود: جمع قَدٍّ، والقَدُّ هو القامة. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (قدد).
(٦) صواف: أي قيامًا. وانظر «لسان العرب»، مادة (صفف).

كما لا تَجتمع بنت عدو الله وبنت رسول الله عند رجلٍ واحدٍ أبدًا[١].

أَنْــتَ الْقَتِيــلُ بِكُــلِّ مَــنْ أَحْبَبْتَــهُ   فَاخْتَرْ لِنَفْسك فِي الْهَوى مَنْ تَصْطَفِي

[هدي الصحابة رضي الله عنهم في السماع]

كان أصحابُ مُحمد ﷺ ورضي عنهم، إذا اجتمعوا واشتاقوا إلى حادٍ يَحدو بِهم، ليطيب لَهم السير، ومحركٍ يُحرك قلوبَهم إلى مَحبوبهم، أمروا واحدًا منهم يقرأ والباقون يستمعون، فتطمئن قلوبهم، وتفيض عيونهم ويَجدون من حلاوة الإيمان أضعاف ما يَجده السماعاتية من حلاوة السماع.

وكان عُمر بن الخطاب إذا جلس عنده أبو موسىٰ يقول: يا أبا موسىٰ ذَكِّرْنَا رَبَّنا، فيأخذ أبو موسىٰ في القراءة[٢]، وتعمل تلك الأقوال في قلوب القوم عملها.

وكان عثمان بن عفان يقول: «لو طهرت قلوبنا لَمَا شبعت من كلام الله»[٣].

وأي والله، كيف تشبع من كلام محبوبهم وفيه نهاية مطلوبهم؟ وكيف تشبع من القرآن؟ وإنَّما فتحت به لا بالغناء والألْحَان؟!

(١) وهو جزء من حديث في الصحيحين، وقد سبق تخريجه قريبًا.

(٢) هذا الأثر أخرجه الدارمي في «سننه» (٣٤٩٣، ٣٤٩٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٩٦)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٤١٧٩، ٤١٨١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٥٨)، وابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» من حديث أبي سلمة عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.
وإسناده ضعيف لانقطاعه، فأبو سلمة لم يسمع من عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

(٣) هذا الأثر أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٠٠)، وعبد الله بن أحمد في «فضائل الصحابة» (٧٧٥) من زياداته علىٰ أبيه، وكذلك أخرجه عبد الله بن أحمد في «الزهد» (ص ١٢٨) من زياداته علىٰ أبيه، عن سفيان بن عيينة قال: قال عثمان... إلخ.
قلت: وإسناده ضعيف لانقطاعه، سفيان بن عيينة لم يدرك عثمان -رضي الله عنه- ولم يسمع منه.

إذا مَرضنا تَداوينا بِذكرِكُم فَإنْ تَركْناهُ زَادَ السُّقم والمرض

وأصحاب الطرب والألحان عن هذا كله بِمعزل، هم في وادٍ، والقومُ في وادٍ.

والضَّبُّ والنونُ قد يُرْجَى التقاؤهما وَلَيْسَ يُرْجى التقاءُ الوحي والقصبُ

فأين حال من يطرب على سماع الغناء والقصب بين المثالث والمثاني وذوقه ووجده إلى حال من يَجد لذة السماع وروح الحال، وذوق طعم الإيمان إذا سمع في حال إقبال قلبه على الله وأنسه به وشوقه إلى لقائه، واستعداده لفهم مراده من كلامه وتنزيله على حاله وأخذه بحظه الوافر منه قارئًا مُجيدًا حسن الصوت والأداء يقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ١-٧].

وأمثال هذا النمط من القرآن الذي إذا صادف حياة في قلب صادق قد شمَّ رائحة المحبة وذاق حلاوتها، فقلبه لا يشبع من كلام مَحبوبه ولا يَقرُّ ولا يطمئنُّ إلاَّ به، كان موقعه من قلبه كموقع وِصَال الحبيب بعد طول الهجران، وحلَّ منه محلَّ الماء البارد في شدَّة الْهَجير[1] من الظمأ.

فما ظنُّكَ بأرض حياتها بالغيث أصابها وابله[2]، أحوج ما كانت إليه، فأنبت فيها من كلِّ زوج بَهيج، قائم على سوقه يشكره ويُثني عليه.

---

(١) الهجير: نصف النهار عند اشتداد الحر. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (هجر).
(٢) الوابل: هو المطر الشديد. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (وبل).

فهل يستوي عند الله تعالى وملائكته ورسوله والصادقين من عباده، سماع هذا وسماع هذا، وذوق هذا وذوق هذا؟!

فأهل سماع الغناء عبيد نفوسهم الشهوانية، يعملون السماع طلبًا للذة النفس ونيلاً لحظها الباطل.

فمن لَم يميز بين هـذين السماعين، والذوقين فليسأل ربه بصدق رغبته إليه أن يُحيي قلبه الميت، وأن يَجعل له نورًا يَستضيءُ به في ظلمات جهله، وأن يَجعل له فرقانًا فيفرق به بين الحق والباطل، فإنَّهُ قريبٌ مُجيب.



فصل

في التنبيه على نكتة خفية من نكت السماع

وفي السماع نكتة حقيقية أصلية يعرفها أهلها، ويَجدونَها بعد انقضائه وهي أنه قد علم الذائقون منهم أنَّهُ ما وجد صادق في السماع الشعري وجدًا، وتَحرَّكَ به إلاَّ وجد بعد انقضائه ومفارقة المجلس قبضًا على قلبه، ونوع استيحاش، وأحس ببعده وانقطاعًا وظلمة.

ولا يتفطن لهَذا الأمر إلاَّ من في قلبه أدْنَىٰ حياة وإلاَّ فما لجرح بِمَيِّتٍ إيلامُ[1]، ولو سُئِلَ عَن سبب هذا لَم يعرفه؛ لأن قلبه مغمور في السماع وذوقه الباطل، فهو غافل عن استخراج آلامه التي طرقته فيه، وعن أسباب فساد القلب منه، ولو وزنه بالميزان العدل لعلم من أين أُتِيَ، فاسمع الآن السبب الذي لأجله نشأ منه هذا القبض، وهذه الوحشة والبُعد.

لَمَّا كان السماعُ الشعري أعلىٰ أحواله أن يكون مُمتزجًا بحقٍّ وباطلٍ، ومركبًا من شهوةٍ وشُبْهَةٍ، وأحسن أحوال صاحبه أن تأخذ الروح حظَّها المحمود منه، مُمتزجًا بحظٍّ النفس، والشيطان والْهَوىٰ فهو غير صافٍ، ولا خالص، فامتزج نصيب الصادق فيه من الرحمن بنصيب الشيطان، واختلطَ حظ القلب بحظ النفس،

---

(١) وهذا عجز بيت للمتنبي، وهو بيت معروفٌ مشهور:

مَنْ يَهُن يسهل الهوانُ عليه   ما لِجُرحٍ بميِّتٍ إيلامُ

هذا أحسن أحواله، فإنه مؤسس عـلىٰ حظ النفس والشيطان وهو فيه بذاته وهو نصيبه من الرحمن فهو فيه بالعرض، لوم يوضع عليه ولا أسس عليه فاختلط في وادي القلب الْمَاء اليسر الصافي بالماء الكثير الكدر، وغلب الخبيث في الطيب، أو تَجاوروا والتقت الواردات الرحمانية، والواردات الشيطانية.

والمستمع الصاد لغلبة صدقه، وظهور أحكام القلب فيه يخفىٰ عليه ذلك الوقت أثر الكدر ولا يشعر به سيما مع سُكر الروح به، وغيبتها عن سوىٰ مطلوبه، فلمَّا أفاقَ من سُكره، وفارق لذة السماع وطيبه، وجد اللوث[1] والكدر الذي هو حظ النفس، والشيطان، وأثر جثوم[2] الشيطان علىٰ قلبه فأثر فيه ذلك الأثر قبضًا، ووحشةً، وأحس به بُعدًا وكلما كان أصدق وأتمَّ طلبًا كان وجوده لِهذا أتم وأظهر فإن استعداده هو بِحياة قلبه يوجب له الإحساس بِهذا، ولا يدري من أين أتِيَ، وهذا له في الشاهد نظائر وأشباه منها:

أنَّ الرجل إذا اشتغل قلبه اشتغالاً تامًّا بِمشاهدة مَحبوب أو رؤية مخوف، أو لذةٍ مَلَكت عليه حسَّه وقلبه، إذا أصابه في تلك الحالة ضرْبٌ، أو لَسْعٌ أو سَببٌ مُؤلِمٌ، فإنَّه لا يَكاد يشعر به، فإذا فارقته تلك الْحَالة وجد منه ألَم ذلك حتىٰ كأنه أصابه تلك الساعة، فإنَّهُ كان في مانع يَمنعه من الإحساس بالألَم فلمَّا زال المانع أحس بالألَم.

ولِهذا كان بعضُ الصادقين إذا فارق السماع بادر إلى تَجديد التوبة والاستغفار، وأخذ في أسباب التداوي التي يُدفع بِها موجب أسباب القبض والوحشة والبُعد.

---

(١) اللوث: الشر، والتلوث: التلطُّخ. يُقال: لاثه في التراب ولَوَّثهُ. وانظر «لسان العرب»، مادة (لوث).

(٢) جثوم: مصدر جَثَمَ؛ أي: لزم مكانه فلم يبرح؛ أي: تلبَّد بالأرض، وقيل: هو أن يقع علىٰ صدره. وانظر «لسان العرب»، مادة (جثم).

وهذا القدر إنَّما يعرفه أولو الفقه في الطريق أصحابُ الفِطَنِ[1]، المعتنون بتكميل نفوسهم، ومعرفة أدوائِها وأدويتِهَا، والله المستعان.

ولا ريبَ أن الصَّادق في سَماع الأبيات قد يَجد ذوقًا صحيحًا إيْمَانيًّا، ولكن ذلك بِمَنْزِلة من شرب عسلاً في إناء نَجس.

والنفوس الصادقة ذوات الهمم العالية رفعت أنفسها عن الشراب في ذلك الإناء تقذرًا له، ففرت منه لاستقامتها وطهارتها، وعلو همتها فهي لا تشرب ذلك الشراب إلاَّ في إناء يناسبه، فإذا لَم يوجد إناء يناسبه صانت الشراب عن وضعه في ذلك الإناء، وانتظرت أن يليق به.

وغيرها من النفوس تضع ذلك الشراب في أي إناء اتفق لَها؛ من عظام ميتة أو جلد كلب أو خنزير أو إناء خَمر، طالما ما شرب به الخمر، أو لا يستحي الغراب أن يشرب أطيب شراب وألذه في هذه الآنية؟

ولو جرَّد الصادق ذلك في حال سماعه لوجد ذوقه من ذلك، ولكن حلاوة العسل تُغَيِّبُ عنه نتنه وقذره وأثر قبحه على قلبه في تلك الحال، فبعد مفارقته يوجب له ذلك وحشةً وقبضًا، هذا إذا كان صادقًا في حاله مع الله وكان سماعه لله وبالله.

وأمَّا إن كان كاذبًا كان سماعه للذة نفسه وحظه فهو يشرب النجاسات في الآنية القذرات ولا يحس بشيءٍ مِمَّا ذكرناه؛ لاستيلاء الْهَوى والنفس والشيطان عليه.

وأمَّا صاحب السماع القرآني الذي تذوقه، وشرب منه، فهو يشرب الشراب الطهور، الطيب النظيف في أنظف إناء وأطيبه، وأطهره.

---

(١) الفِطَن: جَمع فِطْنَة وهي كالفهم. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (فطن).

فالآنية الثلاثة: نظيف، ونجس، ومُختلط.

والشرابات ثلاثة: طاهر، ونَجس، ومَمزوج.

* والقلوب ثلاثة:

صَحيح سليم: فشرابه الشراب الطهور في الإناء النظيف.

وسقيم مريض: فشرابه الشراب النجس في الإناء القذر.

وقلب فيه مادتان: إيْمَانٌ ونفاق، فشرابه في إناء بحسب المادتين، وقد جعل الله لكل شيءٍ قَدْرًا.

فالعارف مَن نظرَ في الأسباب إلى غاياتها ونتائجها، وتأمل مقاصدها، وما تؤول إليه.

ومَن عرف مقاصد الشرع في سدِّ الذرائع المفضية إلى الحرام، قطع بتحريم هذا السماع؛ فإنَّ المرأة الأجنبية وسماع صوتها حرام، وكذلك الخلوة بِهَا.

[أقسام الْمُحَرَّمات فِي الشريعة]

ومُحَرَّمَات الشريعة قسمان:

* قسمٌ حُرِّم لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَفْسدة.

* وَقِسْمٌ حُرِّم لأنه ذريعة إلى ما اشتمل عليه من المفسدة.

فمن نظر إلى صورة هذا المحرم، ولَم ينظر إلى ما هو وسيلة إليه استشكل وجه التحريم. والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

والْحَمْدُ لله ربِّ العالَمين، وصَلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ سيد المُرسلين مُحمد ﷺ، وعلىٰ آله وأصحابه والتابعين لَهُم بإحْسَانٍ إلَىٰ يَوم الدين، بِمَنِّك وكَرمك يَا أرْحَمَ الرَّحمين.



الفهارس العلمية

أولاً: فهرس الأحاديث النبوية.

ثانيًا: فهرس الآثار.

ثالثًا: فهرس الموضوعات.



أولاً: فهرس الأحاديث النبوية



ثانيًا: فهرس الآثار



ثالثًا: فهرس الموضوعات





الرسالة الثانية

« الذل والانكسار للعزيز الجبار »

مقدمة التحقيق



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمدُ لله مدبِّر الليالي والأيام، ومُصَرِّف الشهور والأعوام، المتُفرد بالكمال والتمام، الملك القدوس السلام، الذي أبصر بقدرته ما في بواطن العروق ودواخل العظام، وسمع جلَّ جلاله خفيَّ القول وألطف الكلام، سبحانه من إلهٍ عظيم واسع الفضل والإنعام.

وأصلِّي وأسلِّم على بدر التمام، وخير الأنام، وأفضل الرسل الكرام، محمد ابن عبد الله: خير من صلَّى وصام، وأخشع من حجَّ لله وقام، صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه الأبرار الكرام.

أما بعد:

فإننا في أيام طغت فيها المادةُ طغيانًا عظيمًا، وابتعد الناس فيها عن كتاب ربهم، وعن هدي نبيهم، فخلت قلوب الكثير منهم من الرحمة، والرأفة، والعطف، والشفقة، والتواضع، والسكينة، والخشية، والإنابة، والخشوع، والخضوع، وغيرها من المعاني العظيمة، والصفات الكريمة!!.

إننا نحتاج في هذا الزمان إلى من يبعث هذه القلوب من مواتِها، ويُوقظها من رقدتها وسُباتِها، ويُحرك فيها مشاعر الخوف والخشية والإنابة والإخبات لرب الأرض والسموات!!.

إننا نحتاج إلى دواء لهذه القلوب التي طال عليه الأمد فقست، وامتلأت كبرًا وعجبًا واحتقارًا وازدراءً للخلق، وغير ذلك من أمراض القلوب الخطيرة؛ فذهبنا نلتمس يمنة ويسرة نُفتِّش ونبحث عن دواء لهذه القلوب.

فوجدنا أنَّ طبيب القلوب، وخبيرَ عللها وأمراضها الإمام الحافظ ابن رجب -رحمه الله-، ذلك الإمام الخاشع الزاهد الورع النبيل الذي يتحدث بلسان حاله قبل لسان مقاله قد صنَّف رسالة يُعالج فيها مرضًا خطيرًا من أمراض القلوب، ويصف طرق العلاج منه.

إنها تلك الرسالة التي صنَّفها الحافظ ابن رجب، وسمَّاها باسم يُعرب ويُفصح عن محتواها، ألا وهو:

« الذُّل والانكسار للعزيز الجبَّار »

وهو اسمٌ جليل يدل على ما تحويه الرسالة، فبمجرد أن يقرع سمعَك اسمُ الرسالة، تجدُ رِقَّةً وانكسارًا وخشوعًا وإخباتًا يعتري قلبك، فكيف يكون حالك إذا قرأت هذه الرسالة، وعشت مع صفحاتها!.

إنها رسالة نفيسةٌ من تصنيف عالم كبير، تتكلم عن أمر خطير، وموضوع عظيم، ألا وهو الخشوع والخضوع والذُّل والانكسار والإخبات لله رب العالمين، وهو أول ما يُرفع من العلم النافع، حتى يصل الأمر بأن تدخل المسجد الجامع الكبير فلا تكاد ترى فيه خاشعًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين!!.

إنَّ هذه الرسالة التي صنَّفها الحافظ ابن رجب -رحمه الله- شفاء لصدورنا، وغذاءٌ لأرواحنا، احتوت على آيات من كتاب ربنا، وأحاديث من سنة نبينا ﷺ، وآثار جليلة من آثار سلفنا.

موضوع الرسالة

يتكلم الحافظ ابن رجب -رحمه الله- في هذه الرسالة عن فضل الذُّلِّ والانكسار بين يدي العزيز الجبَّار، وقد ابتدأها بالكلام عن مقام العبودية وشرفه، وكيف أن الله خيَّر رسوله ونبيه بين أين يكون نبيًّا ملكًا أو عبدًا رسولًا؛ فاختار مقام العبودية لشرفه وقدره، فالله سبحانه يُحب المخبتين له، المنكسرين لعظمته، الخاضعين لجلاله وكبريائه، وقد مدحهم في كتابه، وأثنى عليهم في آياته.

ووصف المؤمنين بالخشوع له في أشرف عباداتهم وهي الصلاة، ومدح أهل العلم لخشوعهم عند سماع كلامه، وأصل الخشوع هو لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعته الجوارح فخشعت أيضًا؛ لأنها تابعة له.

ثم تكلم -رحمه الله- عن معنى الخشوع عند السلف الصالح ونقل عنهم عدة آثار في بيان معنى الخشوع، ثم تكلم عن خشوع الأرض، وخشوع الأصوات للرحمن يوم القيامة، وكذلك خشوع وجوه الكفار وأبصارهم يوم القيامة، وفي هذا دليل على أنَّ الأعضاء تخشع أيضًا كما يخشع القلب.

ثم تكلم -رحمه الله- عن الخشوع الصحيح أو خشوع الإيمان وهو الذي ينبعث من القلب إلى الجوارح، أما إذا تكلف العبد الخشوع في جوارحه

وأطرافه مع خلو قلبه منه، فهذا هو خشوع النفاق، وهو الذي كان السلف الصالح يستعيذون منه.

ثم تكلم عن سبب خشوع القلب، وهو معرفة الله، ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف كان له أخشع، والقلوب تتفاوت في الخشوع بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له سبحانه.

وثمرة الخشوع وانكسار القلب بين يدي الرب جلال جلاله هو قرب الله من أصحابها، واستجابته لدعائهم، وجبر انكسار قلوبهم.

ثم عقد الحافظ ابن رجب -رحمه الله- فصلاً يُبَيِّن فيه أن الخشوع هو العلم النافع، وأنه أول ما يُرفع من العلم، وأورد أحاديث وآثارًا تدل على ذلك.

ثم قسَم العلم إلى قسمين:

أولاً: علمٌ نافع: وهو ما باشر القلب فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار له، وهذا هو العلم المراد.

وثانيًا: علم باللسان: لم يباشر القلب فهذا حجة الله على ابن آدم، ولا ينتفع به العبد، وهذا هو العلم الذي كان عند أهل الكتابين من قبلنا موجود بين أيديهم لكنهم لا ينتفعون به؛ لأنه لم يصل إلى قلوبهم فيُحدث فيها الخشية والإنابة، وإنما هو على ألسنتهم تقوم به الحجة عليهم.

ولهذا المعنى وصف الله تعالى في كتابه العلماء بالخشية، ووصف العلماء من أهل الكتاب قبلنا بالخشوع، ووبَّخ[1] من لا يخشع قلبه لسماع كلامه وتدبره، وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من قلب لا يخشع.

---

(١) التوبيخ: هو التهديد والتأنيب.

ثم عقد الحافظ ابن رجب -رحمه الله- فصلاً يتكلم فيه عن الخشوع في الصلاة، وعن مدح الله للخاشعين في صلاتهم، وأورد آثارًا تبين حقيقة الخشوع في الصلاة.

ومما يظهر فيه الخشوع والذل والانكسار من أفعال الصلاة وضع اليدين إحداهما على الأخرى في حال القيام.

ومن الخشوع عدم الالتفات إلى غير الله في الصلاة، سواء كان التفات القلب، أو التفات البصر، وفيه وردت الأحاديث التي تبين أنه اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد.

ومما يظهر فيه الخشوع أيضًا الركوع، وهو ذلٌّ بظاهر الجسد، ولهذا كانت العرب تأنف منه ولا تفعله، حتى بايع بعضهم رسول الله ﷺ على أن لا يفعله.

وأعظم ما يظهر فيه الخشوع السجود حيث يجعل العبد أشرف أعضائه وأعزها عليه وأعلاها حقيقة أوضع ما يُمكنه، فيضعها على الأرض في التراب، ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يُقربه الله -عز وجل- منه، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، والسجود أيضًا مما كان يأنف منه المشركون المستكبرون.

وكان بعضهم يقول: أكره أن أسجد فتعلوني استي[1]، وكان بعضهم يأخذ كفًّا من حصى فيرفعه إلى جبهته ويكتفي بذلك عن السجود، وما طُرد إبليس من رحمة الله إلا لما استكبر عن السجود كما أمره الله.

---

(١) الاست: مؤخرة الإنسان وعجزه ودبره.

ومن تمام خشوع العبد لله أنه يصف ربه في الركوع والسجود بصفات العز والكبرياء والعظمة والعلو، فكأنه يقول: «الذل والتواضع وصفي، والعلو والعظمة والكبرياء وصفك».

ثم عقد الحافظ ابن رجب -رحمه الله- فصلاً آخر يتكلم فيه عن نوعٍ آخر من أنواع العبادات يظهر فيه الخشوع والذل والخضوع، ألا وهو الدعاء.

ومنه رفع اليدين، وافتقار القلب وانكساره واستشعاره شدة الفاقة[1] والحاجة حين الدعاء.

ومنه إظهار الذل باللسان في نفس السؤال والدعاء والإلحاح فيه.

ثم عقد الحافظ ابن رجب -رحمه الله- فصلاً آخر للمقارنة بين المسكنة والفقر والغنى، وما ورد في ذلك من الأحاديث، وانتهى إلى أن المال ليس هو المعيار في الفقر والغنى، وأن الفقر فقر النفس، والغنى غنى النفس.

فمن استكان قلبه لله وخشع له، فهو مسكين وإن كان غنيًّا من المال.

ومن كان فقيرًا لا يملك شيئًا، ولكن قلبه ليس بخاشع ولا مستكين فهو جبار ومتكبر، وليس فقيرًا ولا مسكينًا.

ثم عقد الحافظ ابن رجب -رحمه الله- فصلاً أخيرًا يتكلم فيه عن فضل وشرف مقام العبودية، ولذلك اختاره النبي ﷺ وآثره على مقام المُلك، وذكر عدة أحاديث تدل على ذلك، وعدة آثار وبها ختم الرسالة.

ومن عجيب أمره أنه افتتح رسالته بالكلام عن مقام العبودية، وختمها بالكلام عن مقام العبودية أيضًا، فكأنه يشير بذلك إلى أن مدار الأمر على العبودية، فهي أشرف المنازل.

---

(١) الفاقة: هي الفقر والحاجة.

والحق يُقال أنَّها رسالةٌ ماتعةٌ رائعةٌ رائقةٌ جليلةٌ عظيمةٌ، فهي على صغرها ووجازتها لا يكاد يقرأها أحدٌ إلا ويدخل في قلبه من تعظيم الله وإجلاله، والإقبال عليه، والخشوع بين يديه الشيء الكبير، ويُصيب قلبه الانكسار والخضوع والإنابة والإخبات[1] لله -عَزَّ وجَلَّ-.

فجزى اللهُ مُؤلِّفَها الحافظَ ابن رجب على ما قدَّم ونصح لهذه الأمة، وعرَّف بعظيم منْزلة هذا الأمر العظيم في دين الله، ألا وهو الخشوع والانكسار لله عز وجل، وأنزله منْزلته اللائقة به في دين الله.

فينبغي لكل عبد أن يُقبل على قراءة هذه الرسالة حتى تتحقق فيه هذه الصفة الجليلة التي يُحبها الله سبحانه، ويُحب أهلها.

❊❊❊

(١) الإخبات: هو الخشوع والخضوع.

عملي في الرسالة

* أما عملي في هذه الرسالة المباركة فيتمثل فيما يلي:

أولاً: قمت بمراجعة الرسالة بنفسي، وضبط ما أشكل من كلماتها، وتصحيح ما وقع فيها من أخطاء لغوية، وبيان معاني الكلمات الغريبة التي اشتملت عليها الرسالة.

ثانيًا: خرَّجت جميع أحاديثها وآثارها، فما كان منها في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما أو إلى أحدهما، وفي ذلك كفاية لكي يعرف القارئ الكريم منْزلة الحديث من حيث الصحة، حيث إن أحاديث الصحيحين اتفقت الأمة على صحتها.

أما ما كان خارج الصحيحين فقد اجتهدت قدر طاقتي في تخريجه وتحقيقه والحكم عليه من حيث الصحة أو الضعف.

ثالثًا: وضعت عناوين تُعرب وتُفصح عن موضوعات الرسالة، وتُسهل للقارئ الكريم الاستفادة من مادتها، فكل العناوين التي في هذه الرسالة، والتي وُضعت بين معكوفين، فهي من وضعي، وليست من كلام الحافظ ابن رجب -رحمه الله-.

رابعًا: قمت بعمل ترجمة للحافظ ابن رجب -رحمه الله-.

خامسًا: صنعتُ فهارس علمية للرسالة: فهرسًا للأحاديث، وفهرسًا للآثار، وفهرسًا للموضوعات.

وأخيرًا فهذا جهد الْمُقل، أضعه بين يدي القراء الكرام، راجيًا منهم دعوة صالحة بظهر الغيب أن يتجاوز الله عنّي بِمَنّه وكرمه.

وما أقدمتُ على هذا العمل إلا رغبةً في الخير، ونشرًا للعلم، خاصةً وأنّ هذه الرسالة أصبح وجودها عزيزًا بين يدي القراء الكرام وطلبة العلم الأفاضل.

ثم إنّ موضوعها من الأهمية بمكان، فلا ينبغي أن يخلو منها بيتُ مسلمٍ، بل ينبغي أن يُقبل على قراءتها كل عبد صالح يرجو الله والدار الآخرة، ويطمع في بلوغ منازل أهل العرفان والإحسان.

ولستُ والله أهلاً للإقدام على هذا العمل، ولكنه تَطَفُّل مني على مائدة العلم وأهله راجيًا من الله أن يحشرني في زمرتهم، فأرجو أن أكون بصنيعي هذا قد أحسنتُ، ونلتُ أجرًا على ما فعلتُ، فإن أصبتُ ووُفِّقتُ في ذلك، فمن الله -عَزَّ وجَلَّ-، وإن قصَّرتُ وأخطأتُ -وهذا هو الظن بي وبأمثالي- فمن نفسي ومن الشيطان، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي.

اللهم اجعلنا من الخاشعين المخبتين الخاضعين الوجلين المشفقين الخائفين المنكسرين لك. اللهم اهد قلوبنا، وأصلح فساد أحوالنا، وبلِّغنا مما يرضيك آمالنا، واختم بالباقيات الصالحات أعمالنا.

اللهم إنّا نعوذ بك من خشوع النفاق، ونعوذ بك من الشقاق، ونعوذ بك من سيئ الأخلاق. آمين. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

أبو عبيدة

الوليد بن محمد بن سلامة بن عبد الغني

عفا الله عنه بِمنّه وكرمه

ترجمة الحافظ ابن رجب

رحمه الله



اسمه ونسبه:

هو الإمام الحافظ الحُجَّة زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن رجب بن الحسين بن أبي البركات مسعود السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بـ«ابن رجب الحنبلي».

ورجب هو لقب جده عبد الرحمن.

وقيل: إنه لُقِّب به لولادته في شهر رجب، واشتهر به ابن رجب -رحمه الله-.

مولده:

وُلد الحافظ ابن رجب في بغداد سنة ٧٣٦ هجريًّا، وهذا هو ما ذكرته أغلب مصادر ترجمته باستثناء بعضها.

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ الحافظ ابن رجب في بيئة علمية أثرت فيه منذ نعومة أظفاره، فقد صرَّح -رحمه الله- بأنه تلقى إجازات كبار العلماء في طفولته، مثل الحافظ البرزالي، ومحمد بن أحمد التلي، وغيرهم.

وقد كان جده ممن يُقرأ عليهم الحديث.

وأما والده فقد كان من كبار علماء عصره، وقد رحل بابنه (أي: صاحب

الترجمة) إلى مجتمع العلم والعلماء، وهي دمشق، وبها سمعا كبار المسندين والمحدثين، وأدركا البقية الباقية من علماء القرن السابع، مثل ابن النقيب وغيره.

وقد رحل ابن رجب إلى نابلس، وإلى القدس، ثم رجع مع والده إلى بغداد، ومن بغداد توجه مع والده إلى الحج، ثم عاد إلى دمشق حيث لزم شيخه ابن قيم الجوزية إلى أن مات سنة (٧٥١) هجريًا.

ورحل ابن رجب أيضًا إلى مصر، وبعد هذه الرحلة الحافلة استقر بدمشق، فكان يدرس بالمدرسة الحنبلية، ويصنف الكتب، ويعقد المجالس الوعظية، حتى وافاه الأجل.

مشايخه:

وقد كان لابن رجب شيوخ كثيرون يقاربون الأربعين شيخًا، ومن أبرزهم:

١) محمد بن أبي بكر بن إبراهيم شمس الدين ابن النقيب الشافعي (ت ٧٤٥ هجريًا).

٢) علاء الدين أحمد بن عبد المؤمن الشافعي السبكي ثم النووي (ت ٧٤٩ هجريًا).

٣) شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب شيخ الإسلام المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هجريًا).

٤) جمال الدين أبو سليمان داود بن إبراهيم العطار (ت ٧٥٢ هجريًا).

٥) صدر الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن إبراهيم الميدومي (ت ٧٥٤ هجريًا).

٦) صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي (ت ٧٦١ هجريًا).

تلاميذه:

- وتتلمذ على ابن رجب -رحمه الله- خلق كثير، منهم:

١) عـلاء الـدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس البعلي المعروف بـ«ابن اللحام» (ت ٨٠٣ هجريًّا).

٢) داود بن سليمان بن عبد الله الزين الموصلي الحنبلي (ت ٨٤٤ هجريًّا).

٣) محب الدين أبو الفضل أحمد بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن عمر (ت ٨٤٤ هجريًّا).

٤) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن سيف الدين الحموي الحنبلي المعروف بـ«ابن الرسام» (ت ٨٨٤ هجريًّا).

٥) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد المصري الحنبلي المعروف بـ«الزركشي» (ت ٨٤٦ هجريًّا).

ثناء العلماء عليه:

يقول ابن قاضي شهبة -رحمه الله-:

«كتب وقرأ وأتقن الفن واشتغل في المذهب حتى أتقنه وأكبَّ على الاشتغال بمعرفة متون الحديث وعلله ومعانيه».

ويقول صاحب المنهج الأحمد:

«وكان أحد الأئمة الحفاظ الكبار، والعلماء الزهاد الأخيار».

ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-:

«ورافق شيخنا زين الدين العراقي في السماع كثيرًا، ومهر في فنون الحديث أسماءً ورجالاً وعللاً وطرقًا واطلاعًا على معانيه، صنَّف شرح الترمذي فأجاد فيه في نحو عشرة أسفار، وشرح قطعة كبيرة من البخاري، وشرح الأربعين للنووي

في مجلد، وعمل وظائف الأيام سماه «اللطائف»، وعمل «طبقات الحنابلة» ذيلاً على «طبقات أبي يعلى»، وكان صاحب عبادة وتهجد،... وقال ابن حجي: أتقن الفن، وصار أعرف أهل عصره بالعلل، وتتبع الطرق، وكان لا يخالط أحدًا ولا يتردد إلى أحد... تخرج به غالب أصحابنا الحنابلة بدمشق».

تصانيفه ومؤلفاته:

كان الحافظ ابن رجب -رحمه الله- مكثرًا من التصنيف والتأليف، فلقد ترك لنا قائمة غنية بالمؤلفات في شتى العلوم، منها ما يقع في مجلدات كبار، ومنها ما يقع في ورقات، منها ما طُبع، ومنها ما لم يُطبع بعد، وسنذكر أشهر كتبه المطبوعة:

١) «أحكام الخواتيم».

٢) «اختيار الأولى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى».

٣) «الاستخراج لأحكام الخراج».

٤) «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس».

٥) «أهوال القبور».

٦) «تحقيق كلمة الإخلاص».

٧) «التخويف من النار».

٨) «تسلية نفوس النساء والرجال عند فقد الأطفال».

٩) «تفسير سورة الإخلاص».

١٠) «تفسير سورة النصر».

١١) «جامع العلوم والحكم»، وقد وفَّقني الله تعالى للتعليق عليه وتَخريج أحاديثه تَخريجًا مُختصرًا، وهو مطبوع متداول، ولله الحمد والمِنَّة على ذلك.

١٢) «الذل والانكسار للعزيز الجبار»، وهو كتابنا هذا، وقد اشتهر باسم «الخشوع في الصلاة».

١٣) «الذيل على طبقات الحنابلة».

١٤) «شرح حديث أبي الدرداء فيمن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا».

١٥) «شرح حديث عمار بن ياسر: اللهم بعلمك الغيب».

١٦) «شرح حديث: ما ذئبان جائعان...».

١٧) «شرح علل الترمذي»، وهو كتابٌ جليل لا يستغني عنه طالبُ علمٍ.

١٨) «صدقة السر وبيان فضلها».

١٩) «غاية النفع في شرح حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع».

٢٠) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، ولم يكتمل.

٢١) «فصل في وجوب إخراج الزكاة على الفور».

٢٢) «فضل علم السلف على الخلف»، وهي رسالة جليلة في غاية النفع، وكان شيخنا التَّقِيُّ النَّقِيُّ العابد الخاشع الورع الزاهد أبو محمدٍ عصام بن مرعي -رحمه الله- يُوليها اهتمامًا عظيمًا، وينصح بقراءتها ودراستها، بل إنه قام بتقريبها وتَحقيقها والعناية بها والتعليق عليها والقيام على نشرها بنفسه حتى يعمَّ نفعها، وتنتشر بين المسلمين، فرحمة الله عليه رحمةً واسعة!!.

٢٣) «الفرق بين النصيحة والتعيير».

٢٤) «القواعد الفقهية».

٢٥) «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة».

٢٦) «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من اللطائف».

٢٧) «المحجة في سير الدلجة».

٢٨) «نزهة الأسماع في مسألة السماع».

٢٩) «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ إلى ابن عباس».

وله كتب غير ذلك مطبوعة، وكتب غير مطبوعة يسَّر الله طباعتها والاستفادة منها.

وفاته:

تُوفي الحافظ ابن رجب -رحمه الله- في شهر رجب سنة خمس وتسعين وسبعمائة، وقيل في شهر رمضان، ودُفن بِمقبرة الباب الصغير بجوار قبر الفقيه عبد الواحد بن محمد الشيرازي بناء على وصية منه بذلك، فرحمه الله رحمة واسعة، وألحقه بمنازل الصديقين والشهداء والصالحين. آمين.





الذلُّ والانكسار للعزيز الجَبَّار

أو « الخشوع في الصلاة »

تأليف

الإمام العلامة الحافظ

زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن

الشهير بابن رجب الحنبلي

(٧٣٦ هـ - ٧٩٥ هـ)



بسم الله الرحمن الرحيم

رب يَسِّر وأعن يا كريم

الْحمد لله جابر قلوب المنكسرة قلوبهم من أجله، وغافر ذنوب المستغفرة لذنوبهم بفضله.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا شيء كمثله، وأشهدُ أنَّ مُحمدًا عبدُه ورسوله، أرسله بالْهُدىٰ ودين الحق ليُظهره علىٰ الدين كله، وخَيَّرَهُ بين أن يكون نبيًّا ملكًا أو عبدًا رسولاً[1]، فاختارَ مقام العبودية مع رُسُله.

(١) يُشير المصنِّف -رحمه الله- إلىٰ ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٣١)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٣٦٥)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (٦١٠٥) من طريق: محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة قال: «جلس جبريل إلَىٰ النبي ﷺ فنظر إلَىٰ السماء، فإذا ملك ينْزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خُلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربُّك أملكًا أجعلك أم عبدًا رسولاً؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد، فقال رسول الله ﷺ: «لا بل عبدًا رسولاً».
قلت: وهو حديث صحيح، وقد صحَّحه كثير من أهل العلم:
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٥٨٢): «رواه أحمد والبزار وأبو يعلىٰ، ورجال الأولين رجال الصحيح». انتهىٰ
وقال العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٠٢): «وهذا إسناد صحيح علىٰ شرط مسلم». انتهىٰ
وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لـ «مسند الإمام أحمد»، و«صحيح ابن حبان»: «إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين». انتهىٰ
=

فكان يقول: «اللهم أحيني مسكينًا وأمِتْني مسكينًا، واحشرني في زُمْرَة الْمَسَاكين»(١).

=

وقال حسين سليم أسد محقّق «مسند أبي يعلىٰ»: «إسناده صحيح». انتهىٰ

(١) وهذا الحديث قد ورد من مسانيد أربعة من الصحابة، وهم:

أنس بن مالك، وأبو سعيد الخدري، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عباس -رضي الله عنهم جميعًا-، وجميع هذه الأحاديث الأربعة لا تخلو من ضعف أو مقال، وسوف أبين ذلك بتوفيق من الله تعالىٰ مع شيء من الإيجاز والاختصار حتىٰ لا يطول بنا المقام:

أولاً: حديث أنس بن مالك:

أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٥٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٥٣، ١٠٥٠٧)، وفي «السنن الكبرىٰ» (٧/ ١٢)، وغيرهم.

قلت: وهو حديث ضعيف جدًّا، وقد ضعَّفه جمعٌ من الأئمة، منهم الترمذي، والبيهقي، وابن كثير.

قال الترمذي -رحمه الله- عقب إخراج الحديث: «حديث غريب». قلت: يعني: ضعيف.

وطعن فيه البيهقي -رحمه الله- أيضًا بقوله عقب إخراجه: «فهو إن صح طريقه، وفيه نظر...» انتهىٰ.

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ٥٠): «وفي إسناده ضعف، وفي متنه نكارة، والله أعلم» انتهىٰ.

قلت: وعلة الحديث الحارث بن النعمان الليثي، قال فيه البخاري: «منكر الحديث». وهذا تضعيف شديد منه، فقد ذكروا عنه أنه قال: «كل من قلت فيه منكر الحديث، فلا تحل الرواية عنه».

ثانيًا: حديث أبي سعيد الخدري:

أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤١٢٦)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٣٥٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٩٩، ١٠٥٠٦)، وفي «السنن الكبرىٰ» (٧/ ١٢)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٦١٥)، وفي «الدعاء» (١٤٢٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٠٠٢)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ١١١)، والبخاري في «الكنىٰ» (٧١٨)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١١، ١٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ١٢٢) وغيرهم.

قلت: وإسناده ضعيف أيضًا؛ فيه أبو المبارك، وهو مجهول كما قال أبو حاتم الرازي، =

=

والترمذي، والذهبي، وابن حجر، وأما ذكر ابن حبان له في كتابه «الثقات»، فهو مما عُرف عنه من توثيقه للمجاهيل والضعفاء.

وفي إسناد الحديث أيضًا: يزيد بن سنان، وقد ضعَّفه أكثر الأئمة.

هذا وقد ضعَّف الحديث كثيرٌ من الأئمة، ومنهم الحافظ ابن كثير، والبوصيري، وغيرهما.

ثالثًا: حديث عبادة بن الصامت:

أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٧/ ١٢)، والطبراني في «الدعاء» (١٤٢٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ١٩٤) وغيرهم.

قلت: وإسناده ضعيف أيضًا؛ فيه عبيد (وقيل: عبيد الله، وقيل: عبد الله) بن زياد الأوزاعي مجهول لا يُعرف.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» عقب إيراده لهذا الحديث: «رواه الطبراني، وفيه بقية بن الوليد، وقد وُثِّق علىٰ ضعفه، وشيخ الطبراني وعبيد الله بن زياد الأوزاعي لم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات» انتهىٰ.

رابعًا: حديث عبد الله بن عباس:

أخرجه الشيرازي في كتابه «الألقاب» كما عزاه إليه العلامة الألباني -رحمه الله- في «الإرواء» (٣/ ٣٦٢)، وذكر أن في سنده طلحة بن عمرو وهو متروك.

قلت: وخلاصة القول أن هذا الحديث لا يصح له إسناد عن رسول الله ﷺ كما رأيت، كما أنه قد أنكره بعض الأئمة من جهة المتن، وذلك لما صح عنه ﷺ من أنه استعاذ من المسكنة، فالحديث ضعيف جدًّا سندًا ومنكر متنًا، والله تعالىٰ أعلم.

هذا وقد توسع العلامة الألباني -رحمه الله- في الكلام عن هذا الحديث في كتابه «إرواء الغليل» (٨٦١) بما لا تكاد تراه عند غيره، وذكر أن جميع طرقه لا تخلو من قادح؛ إلا أنه رأىٰ أن مجموعها يُحدث قوةً، ويشد بعضها بعضًا.

ونحن نخالفه في ذلك تبعًا لجمعٍ من الأئمة رأوا أن الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، بل بعضهم ذكره في كتب الموضوعات.

وأيضًا لأن جميع طرقه مدارها علىٰ مجاهيل أو ضعفاء ضعفهم شديد كما بيناه آنفًا، فحالهم لا يحتمل مثل هذه التقوية، والله أعلم.

وانظر للمزيد: «السنن الكبرىٰ» (٧/ ١٢) للبيهقي، و«الموضوعات» (٣/ ١٤١) لابن الجوزي، و«الفوائد المجموعة» (ص٢٤٠) للشوكاني، و«كشف الخفاء» (٥٣٨) للعجلوني، و«تذكرة الموضوعات» (١/ ٤٠١) للفتني، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٠)

=

لشرف هذا المقام وفضله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، والمستمسكين من بعدهم بِحبله.

أمَّا بعد:

[فضل الخشوع والخاشعين]

فإن الله -سبحانه وتعالى- مَدحَ في كتابه الْمُخبتين[1] له، والمنكسرين لعَظمته، والْخَاضعين.

فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ووصف المؤمنين بالخشوع له في أشرف عباداتهم التي هُم عليها يُحافظون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

ووصف الذين أوتوا العلم بالخشوع حيثُ يكون كلامه لهم مسموعًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

[حقيقة الخشوع]

وأصل الخشوع هو: لينُ القلبِ ورِقَّته وسكونُه وخضوعُه وانكسارُه وحُرقَته، فإذا خشعَ القلبُ تبعه خشوعُ جَميع الجوارح والأعضاء لأنَّها تابعةٌ له.

=

لابن كثير، و«إرواء الغليل» (٨٦١)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٠٨) كلاهما للألباني.

(١) الإخباتُ: هو الخشوع، يُقال: أخبتَ لله تعالى؛ أي: خَشَعَ له.

كما قال ﷺ: «ألاَ إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إذا صلحت صَلح الْجَسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الْجَسَد كله، ألا وهي القلب»(١).

فإذا خشع القلبُ خشع السمعُ والبصر والرأس والوجه وسائر الأعضاء وما ينشأ منها حتىٰ الكلام.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: «خشع لك سمعي وبصري ومُخِّي وعظامي»(٢). وفي رواية: «وما استقلَّ به قَدمي»(٣).

[معنى الخشوع عند السلف]

ورأىٰ بعضُ السَّلف رجلاً يعبث بيده في صلاته فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه».

ورُوي ذلك عن حُذيفة -رضي الله عنه-، وسعيد بن المسَيَّب، ويُروىٰ مرفوعًا بإسناد لا يصح(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٥٢)، ومسلم في «صحيحه» (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وفيه زيادة: «وعصبي».

(٣) أخرج هذه الرواية: أحمد في «مسنده» (١/ ١١٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٦٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٠١)، والدارقطني في «سننه» (١/ ٣٤٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢/ ٣٢، ٨٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٢٩٦)، والشافعي في «مسنده» (١٥٤) من حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أيضًا.
وهي رواية صحيحة صحَّحها جمعٌ من أهل العلم، ومنهم العلامة الألباني -رحمه الله- في «صفة الصلاة» (ص١٣٣).

(٤) قلت: وهو حديث لا يصح مرفوعًا ولا موقوفًا:
أولاً: أما الموقوف على سعيد بن المسيب -رحمه الله-:
فقد أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦٧٨٧)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣٣٠٩)، =

قال المسعودي: عن أبي سنان، عمَّن حدَّثه عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢].

قال: هو الخشوع في القلبِ وأن تُلينَ كَنَفَك(١) للمرء المسلم وأن لا تلتفت في صلاتك(٢).

وقال عطاء بن السائب عن رجل، عن علي -رضي الله عنه-: «الخشوع خشوع القلب وأن لا يلتفت يَمينًا وشمالاً»(٣).

=

وعبد الله بن المبارك في «الزهد» (١١٨٩)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥١)، وفي السند إلىٰ سعيد بن المسيب رجل مُبهم لم يُسم.

ثانيًا: وأما الموقوف على حذيفة -رضي الله عنه-:

فقد أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥٠) من طريق: الوليد بن مسلم، عن ثور بن يزيد، عن حذيفة -رضي الله عنه-.

وهذا إسناد معضل، وفيه عنعنة الوليد بن مسلم، وهو مشهور بكثرة التدليس والتسوية.

ثالثًا: وأما المرفوع إلى رسول الله ﷺ:

فقد أخرجه الحكيم الترمذي في «النوادر»، وفي إسناده سليمان بن عمرو وهو أبو داود النخعي، وهو متفق ومجمع علىٰ ضعفه، بل قال ابن عدي: أجمعوا علىٰ أنه يضع الحديث.

قلت: ولذلك حكم العلامة الألباني -رحمه الله- علىٰ هذا الحديث بالوضع، كما في كتابيه «إرواء الغليل» (٣٧٣)، و«ضعيف الجامع» (٤٨٢١).

(١) الكَنَف: هو الجانب. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (كنف).

(٢) أخرجه عبد الله بن المبارك في كتابه «الزهد» (١١٤٨)، وابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣) وغيرهما.

قلت: وإسناده ضعيف؛ مداره علىٰ رجل مُبهم لم يُسم يرويه عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتابه «تعظيم قدر الصلاة» (١٣٩) عن إسحاق عن يحيىٰ بن الضريس عن عمرو بن أبي قيس عن عطاء بن السائب عن رجل عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- به.

=

وقال: عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢].

قال: «خائفون ساكنون»(١).

وقال ابن شَوْذب عن الحسن -رحمه الله تعالى-: «كان الخشوع في قلوبهم فغضُّوا له البصر وخفضوا له الجناح»(٢).

وقال منصور، عن مُجاهد: «هو الخشوع في القلب، والسكون في الصلاة»(٣).

=

قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه عطاء بن السائب، وهو مشهور بأنه قد اختلط، ولا يُحتج بحديثه إلا ما رواه عنه الأكابر مثل شعبة وسفيان.

وفي السند أيضًا علة أخرىٰ ألا وهي جهالة شيخ عطاء الذي يروي عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٨/ ٣)، عن علي، عن عبد الله، عن معاوية، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنه- به.

قلت: وإسناده منقطع؛ علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٨/ ٣) عن عبد الجبار بن يحيىٰ الرملي عن ضمرة ابن ربيعة عن ابن شوذب عن الحسن به.

قلت: وهذا إسناد ضعيف فيه انقطاع عبد الله بن شوذب الخراساني لم يسمع من الحسن ولم يره كما قال ابن أبي حاتم في كتابه «المراسيل» (٤٢١):

«سمعتُ أبي يقول: عبد الله بن شوذب خراساني ثقة، وقع إلىٰ الرَّملة، ويقول ابن شوذب: عن الحسن، ولم يره، ولم يسمع منه ...». انتهىٰ

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولعل المصنِّف -رحمه الله- أورده بالمعنىٰ معتمدًا علىٰ حافظته وذاكرته، وقد أخرجه الطبري في «التفسير» (١٨/ ٣)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢/ ٢٨٠) كلاهما من طريق عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قال: السكون فيها.

وقال ليث، عن مُجاهد: «من ذلك خفض الجناح[1]، وغض البصر، وكان المسلمون إذا قام أحدهم إلى الصلاة خاف ربه أن يلتفت عن يَمينه أو شماله»[2].

وقال عطاء الخراساني: «الخشوعُ خشوع القلب والطرف[3]»[4].

وقال الزهري: «هو سكون العبد في صلاته»[5].

وعن قتادة قال: «الخشوع في القلب هو الخوف وغض البصر في الصلاة»[6].

وقال ابن أبي نَجيح، عن مُجاهد -رحمه الله تعالى- في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. قال: «متواضعين»[7].

---

(١) الجناح: أي الجانب. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾؛ أي: ألِن لهما جانبك. وانظر «لسان العرب»، مادة (جنح).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولعل المصنِّف أورده بالمعنىٰ معتمدًا علىٰ حافظته وذاكرته، وقد أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٥٢) بإسناده عن ليث عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ قال: من القنوت الركوع والخشوع وغض البصر وخفض الجناح من رهبة الله -عَزَّ وجَلَّ-.
قال البيهقي: كان العلماء إذا قام أحدهم في الصلاة فهاب الرحمن أن يشذ بصره أو يلتفت أو يعبث بشيء أو يقلب الحصىٰ أو يحدث نفسه من شأن الدنيا إلاَّ نسيًا.
قلت: وفي سنده ليث بن أبي سليم، وهو مشهور بالضعف.

(٣) الطرف: العين. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (طرف).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (١٨/ ٣)، وعبد الرزاق الصنعاني في «التفسير» (٣/ ٤٣) كلاهما من طريق معمر عن الزهري ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال: «سكون المرء في صلاته». قلت: وإسناده صحيح.

(٦) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في «تفسيره» (٣/ ٤٣)، وعنه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣) من طريق معمر عن قتادة بلفظ مختصر هكذا: «الخشوع في القلب».

(٧) عزاه السيوطي في كتابه «الدر المنثور» (٥/ ٦٧١- دار الفكر) إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كلهم أخرجوه عن مجاهد.

=

[خشوع الأرض]

وقد وصفَ اللهُ تعالىٰ في كتابه الأرض بالخشوع فقال:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

فاهتزازها وربوُّها -وهو ارتفاعها- مُزيلٌ لخشوعها، فدَلَّ علىٰ أن الخشوع الذي كانت عليه هو سكونُها وانخفاضُها.

وكذلك القلب إذا خَشَعَ، فإنَّهُ يَسْكُن خواطرُه وإراداته الرديئة التي تنشأ عن اتِّبَاع الْهَوىٰ وينكسرُ ويَخضع لله -عَزَّ وَجَلَّ-، فيزول بذلك ما كان فيه من..[1] والترفع والتعاظم والتكبر.

ومتىٰ سَكَنَ ذلك في القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلُّها حتىٰ الصَّوتُ.

[خشوع الأصوات]

وقد وصف الله تعالى الأصوات بالخشوع في قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]. فخشوع الأصوات هو سكونها وانخفاضها بعد ارتفاعها.

=

وهو في «تفسير مجاهد» (١/ ٤١٥) من طريق عبد الرحمن عن إبراهيم عن آدم عن ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

قلت: وعبد الرحمن هو ابن الحسن بن أحمد بن محمد بن عبيد بن عبد الملك أبو القاسم الأسدي القاضي من أهل همذان، ويُحدث بهذا التفسير عن إبراهيم بن الحسين بن ديزيل الهمذاني، وهو مطعون في سماعه منه كما في ترجمته في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٢٩٢).

(١) في الطبعة المعتمدة علىٰ النسخة الخطية كُتب هنا في الحاشية: «كلمة غير واضحة تشبه (الباة)!!».

[خشوع وجوه الكفار وأبصارهم]

وكذلك وصف وجوه الكفار وأبصارهم في يوم القيامة بالخشوع، فدلَّ ذلك على دخول الخشوع في هذه الأعضاء كلّها.

[خشوع النفاق]

ومتى تكلَّف الإنسانُ تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخُلوِّه منه كان ذلك خشوع نفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه كما قال بعضهم: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق»، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: «أن يُرىٰ الجسد خاشعًا والقلبُ ليس بخاشع»(١).

---

(١) قلت: وهذا الأثر يُروىٰ موقوفًا علىٰ أبي الدرداء -رضي الله عنه-، ويُروىٰ مرفوعًا إلىٰ رسول الله ﷺ، ولا يصح موقوفًا ولا مرفوعًا:
أولاً: أما الموقوف على أبي الدرداء -رضي الله عنه-:
فقد أخرجه الإمام أحمد في كتابه «الزهد» (ص١٤٢)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٦٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٨٣) من طريق: محمد بن خالد الضبي، عن محمد بن سعد الأنصاري، عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- به، وإسناده ضعيف معضل.
وأخرجه كذلك ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٢٤٣- الرشد) من وجه آخر عن محمد بن خالد الضبي عن شيخ عن أبي الدرداء، فأبهم الراوي عن أبي الدرداء -رضي الله عنه-.
وأخرجه كذلك ابن المبارك في كتابه «الزهد» (١٤٣) عن سفيان عن أبي يحيىٰ أنه بلغه أن أبا الدرداء أو أبا هريرة قال: ... فذكره، وإسناده ضعيف معضلٌ أيضًا.
ثانيًا: وأما المرفوع إلى رسول الله ﷺ:
فقد أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٦٧) من حديث أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- مرفوعًا.
قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ٢٢٥): «أخرجه البيهقي في «الشعب» من حديث أبي بكر الصديق، وفيه الحارث بن عبيد الإيادي، ضعَّفه أحمد وابن معين». انتهىٰ =

ونظر عمر -رضي الله عنه- إلى شاب قد نَكَسَ(١) رأسه فقال له: «يا هذا، ارفع رأسك، فإنَّ الخشوع لا يزيد على ما في القلب»(٢).

فمن أظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه فإنَّما هو نفاق على نفاق.

[خشوع القلب سببه معرفة الله]

وأصلُ الخشوع الحاصل في القلب إنَّما هو من معرفة الله، ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف كان له أخشعُ.

=

قلت: وقد رُوي من مسند عبد الله بن عمر أيضًا، وقد عزاه المتقي الهندي في كتابه «كنز العمال» (٢٠٠٨٩) إلى الحاكم في «تاريخه»، ولم أقف على إسناده بنفسي، ولكنَّ هذه الكتب مظنة الضعيف والواهي، ومن النادر جدًّا أن تتفرد بحديث صحيح.

قلت: ثم وقفت على كلام في «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر يؤيد ما ذكرته، وهو في ترجمة بكر بن عبد الله بن محمد القاضي، أبي علي بن أبي بكر الحبال الرازي: «قال الحاكم: قدم نيسابور، وحدَّث بالمناكير، وقد ذكرت من أحاديثه أحاديث تعجبًا، ليعلم المتبحر في هذا العلم أنها موضوعة. قلت: وحدث عن عبد الله بن الحسين بن بحر الوراق عنه بأحاديث عدة، منها:

عن محمد بن عبد الله بن سالم، عن عثمان بن عبد الرحمن، عن بقية عن إسماعيل بن عياش، عن أبي حنيفة، عن نافع، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- رفعه: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق». انتهى

(١) نكس رأسه: أي أمَالَهُ وطأطأهُ من ذُلٍّ. وانظر «لسان العرب»، مادة (نكس).

(٢) قلت: قد أورد هذا الأثر المتقي الهندي في كتابه «كنْز العمَّال» (٢٢٥٢٨) عن محمد بن عبد الله القرشي عن أبيه قال: نظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس في الصلاة رأسه، فقال له: «ما هذا؟ ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقًا على نفاق». ثم عزاه للدينوري.

قلت: ومحمد بن عبد الله هذا لا يُدرى من هو ولا من أبوه، والإسناد إليهما ليس بين يديَّ ولم أقف عليه لكي أحكم عليه بالصحة أو بالضعف.

ومن عجبٍ أن هذا الأثر مشهور شهرةً واسعةً عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، على الرغم من حال إسناده!!.

وتتفـاوت القلـوب في الخشـوع بحَسب تفاوتِ معرفتها لِمن خَشَعَت، وبحسب تفاوت مُشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع.

فمن خاشع لقوة مُطالعته قُرْب الله من عبده واطلاعه علىٰ سِرِّه وضميره المقتضي للاستحياء من الله تعالى ومراقبته في الحركات والسكنات.

ومن خاشع لِمطالعته لجلال الله وعظمته وكبريائه المقتضي لهيبته.

ومن خـاشع لِمطالعته لكمـاله وجَماله المقتضي للاستغراق فِي مَحبتـه والشوق إلَىٰ لقائه ورؤيته، ومن خـاشع لمطالعته شـدَّة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضي للخوف منه.

[قرب الله من المنكسرة قلوبهم]

وهو -سبحـانه وتعالى- جـابرُ[1] القلـوب المنكسرة لأجله فهـو -سبحانه وتعالَىٰ- يتقرَّب مـن القلـوب الخاشعة له كما يتقرب مِمَّن يُناجيه في الصلاة ومِمَّن يُعفِّر[2] له وَجْهَه في الـتراب بالسجود.

وكما يتقرب من وفـده وزوار بيته الواقفين بين يديه المتضرعين إليـه في الوقوف بعرفة ويدنو ويباهي بِهم الملائكة.

وكما يتقرب من عباده الدائبين[3] له، السائلين له، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار، ويُجيب دعاءهم ويُعطيهم سؤالهم.

ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب والإجابة.

---

(١) الجـبرُ: أن تغني الرجل من فقر أو تُصلـح عظمـه من كـسر، يُقال: جَبَر الله فلانًا فاجتبر؛ أي: سدَّ مفاقره. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (جبر).

(٢) العفَـر: هـو الـتراب، يُقال: «عَفَّرتُ الشيء»؛ أي: مرَّغته في التراب. وانظر «مختـار الصحـاح»، مادة (عفر).

(٣) دأب في عمله: أي جدَّ وتعب. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (دأب).

روى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- في كتاب «الزهد» بإسناده عن عمران القصير قال: «قال موسى بن عمران -عليه السلام-: أي ربِّ أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبُهم، إني أدنو منهم كل يوم باعًا، ولولا ذلك لانهدموا»(١).

وروى إبراهيم بن الْجُنَيْد -رحمَهُ الله تعالى- في كتاب «المحبة» عن جعفر بن سليمان قال: سمعتُ مالك بن دينار يقول: «قال موسى -عليه السلام-: إلهي أين أبغيك؟ فأوحى الله -عَزَّ وَجَلَّ- إليه: أن يا موسى ابغني عند المنكسرة قلوبُهم، فإني أدنو منهم في كل يوم وليلة باعًا ولولا ذلك لانهدموا».

قال جعفر: فقلتُ لمالك بن دينار: كيف المنكسرة قلوبُهم؟ فقال: سألتُ الذي قرأ في الكتب فقال: سألتُ الذي سأل عبد الله بن سلام فقال: سألتُ عبد الله بن سلام عن المنكسرة قلوبهم ما يعني؟

قال: «المنكسرة قلوبهم بِحب الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن حب غيره»(٢).

وقد جاء في السنة الصحيحة ما يشهد لقرب الله من القلب المنكسر ببلائه الصابر على قضائه أو الراضي بذلك كما في «صحيح مسلم» عن أبي هُريرة -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ: «يقول الله -عَزَّ وَجَلَّ- يوم القيامة: يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدْنِي، قال: يا ربِّ كيف أعودك وأنت ربُّ العالَمين، قال: أما علمتَ أنَّ عبدي فلانًا مرض فلم تَعُده، أمَا علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٧٧) كلاهما من طريق سيار، عن جعفر، عن عمران القصير به.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٦٤) مختصرًا عن أبي حامد بن جبلة، عن محمد ابن إسحاق، عن هارون، عن سيار، عن جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار به.
قلت: ولم أقف على كتاب «المحبة» هذا لإبراهيم بن الجنيد.

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعًا، ولفظه: «إن الله -عَزَّ وجَلَّ- يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال: يا رب =

وروى أبو نُعيم من طريق ضمرة عن ابن شَوْذب قال: «أَوْحَىٰ الله تعالى إلى موسىٰ -عليه السلام-: أتدري لأي شيء اصطفيتُك علىٰ الناس برسالاتي وبكلامي؟ قال: لا يا رب! قال: لأنَّهُ لَم يتواضع لِي أحدٌ تواضعك»[1].

❁❁❁

=

كيف أعودك وأنت رب العالمين؟. قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي؟».

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٣٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ٥٣) كلاهما من طريق ضمرة عن ابن شوذب به.
هذا، وقد عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٤٨) إلى أبي الشيخ.

فصل

[في بيان أن الخشوع هو العلم النافع، وأنه أول ما يُرفع من العلم]

وهذا الخشوع هو العلم النافع، وهو أول ما يرفع من العلم.

خرَّج النسائي من حديث جُبَير بن نفير -رضي الله عنه-، عن عوف بن مالك -رضي الله عنه-، أنَّ رسول الله ﷺ نظر إلى السماء يومًا وقال: «هذا أوان يُرفع العلم»، فقال رجلٌ من الأنصار، يُقالُ له زياد بن لَبيد: يا رسول الله، ويُرْفَعُ العلم وقد أثبتَ ووَعَتْهُ القُلوب؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة»، وذكر ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

قال: «فلقيتُ شدَّاد بن أوس فحدثته بحديث عوف بن مالك، فقال: صدق عوف ألا أخبرك بأول ذلك يرفع؟ قلت: بلى، قال: الخشوعُ حتى لا ترى خاشعًا»[1].

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٥٩٠٩)، وأحمد في «مسنده» (٦/ ٢٦- ٢٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥٧٢، ٦٧٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٤٣)، وفي «مسند الشاميين» (٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٣٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ١٢٢، ١٢٣)، والبزار في «مسنده» (٢٣٢) «كشف الأستار»، والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (٨٩)، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (ص٩٠- ١١٠) وغيرهم من طريق: جبير بن نفير عن عوف بن مالك -رضي الله عنه- به.

قال الحاكم عقب إخراجه للحديث: «هذا صحيح، وقد احتج الشيخان بجميع رواته».

وقال الذهبي في «التلخيص»: «صحيح احتجا برواته».

=

وخرَّجه الترمذي من حديث جُبير بن نُفير، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ بنحوه وفي آخره: قال جبير: «فلقيتُ عبادة بن الصامت، فقلتُ ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء، فأخبرتُه بالذي قال. قال: صدق أبو الدرداء، لو شئت لحدثتك بأول علم يُرفع من الناس: الخشوع، يوشِك أن تدخل مسجد الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشعًا»(1).

وقد قيل: إن رواية النسائي أرجح.

=

- وصحح إسناده أيضًا:
١] الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في «التفسير» (٢/ ١٠٤).
٢] والعلامة الألباني في تحقيقه لـ«اقتضاء العلم العمل» (٥٨).
٣] وشعيب الأرناؤوط في تحقيقه لـ«صحيح ابن حبان» (١٠/ ٤٣٣) و(١٥/ ١١٥).

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (٢٨٨)، وعنه الترمذي في «سننه» (٢٦٥٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٧٩)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٠٢٢)، من طريق: عبد الله ابن صالح، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه جبير بن نفير، عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- به.

قال الترمذي -رحمه الله- عقب إخراجه للحديث: «هذا حديث حسنٌ غريبٌ، ومعاوية بن صالح ثقة عند أهل الحديث، ولا نعلم أحدًا تكلم فيه غير يحيىٰ بن سعيد القطان، وقد رُوي عن معاوية بن صالح نحو هذا. وروىٰ بعضهم هذا الحديث عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن عوف بن مالك، عن النبي ﷺ». انتهىٰ

وقال الحاكم عقب إخراجه: «هذا إسناد صحيح من حديث البصريين». انتهىٰ

قلت: بل إسناده ضعيف؛ فيه عبد الله بن صالح الجهني المصري، وهو سيئ الحفظ وفيه غفلة، والوهم في هذا الإسناد منه، والصحيح ما رواه الثقات بإسناد صحيح عن جبير بن نفير عن عوف بن مالك -رضي الله عنه-، ولذلك قال الحافظ ابن رجب بعد إيراده للحديث: «وقد قيل: إن رواية النسائي أرجح».

قلت: وهذا هو الصحيح الذي لا مرية فيه.

وقد روىٰ سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن -رَحمهُ الله تعالى-، عن شدَّاد ابن أوس، عن النبي ﷺ قال: «أولُ ما يُرفع من الناس الخشوع». فذكره[1].

---

(١) أخرجه من هذا الطريق الذي ساقه المصنِّف الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٦٣٧) من طريق: سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن شداد بن أوس -رضي الله عنه- مرفوعًا به.
قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه سعيد بن بشير وهو الأزدي، ويُقال البصري مولاهم أبو عبد الرحمن، ويُقال أبو سلمة الشامي.
وقد ضعَّف أمره الإمام أحمد بن حنبل، وقال ابن معين فيه: ليس بشيء. وفي رواية أخرىٰ: ضعيف. وقال ابن المديني: كان ضعيفًا. وقال الساجي: يحدث عن قتادة بمناكير. وضعَّفه أيضًا النسائي، وأبو داود، وابن حبان، وغيرهم.
وفيه علة أخرى أيضًا: ألا وهي عنعنة الحسن البصري، وهو مدلس، ولا يُعرف هل لقي شداد بن أوس -رضي الله عنه- أم لا؟!.
هذا، وقد تابع سعيد بن بشير علىٰ هذا الحديث عن قتادة عمرانُ القطان كما أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٢٩٥) من طريق: المهلب بن العلاء عن شعيب بن بيان عن عمران القطان عن قتادة ... به.
قلت: وعمران هذا هو ابن داور العمي أبو العوام القطان البصري، وهو مختلف فيه، فقد قال فيه الإمام أحمد: أرجوه أن يكون صالح الحديث. وقال البخاري: صدوق يهم. وذكره ابن حبان في الثقات. وضعَّفه ابن معين فقال: ليس بالقوي. وفي رواية: ليس بشيء لم يرو عنه يحيىٰ بن سعيد. وقال النسائي: ضعيف. وقال الدارقطني: كان كثير المخالفة والوهم.
وأيضًا: فإن في السند إليه المهلب بن العلاء، وشعيب بن بيان، فأما المهلب بن العلاء فهو مجهول لم أقف له علىٰ ترجمة.
وأما شعيب بن بيان فهو ابن زياد بن ميمون الصفار البصري. قال الجوزجاني: له مناكير. وقال العقيلي: يُحدِّث عن الثقات بالمناكير وكان يغلب علىٰ حديثه الوهم.
هذا، وقد أخرج الحديث أيضًا أبو الشيخ الأصبهاني في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٣/ ٤٢١)، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (٢/ ٤٣٤) ولكن من طريق: حسام ابن مصك، عن الحسن، عن شداد بن أوس -رضي الله عنه- به.
قلت: وحسام بن مصك هذا هو ابن ظالم بن شيطان الأزدي بصري يُكنىٰ أبا سهلٍ

ورواه أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب مُرسلاً[1].

ورُوي نَحوه عن حُذيفة من قوله[2].

=

قال فيه ابن معين: ليس بشيء. وقال النسائي: ضعيف. وقال الفلاس: منكر الحديث متروك الحديث.

قلت: وقد عدَّ الإمام ابن عدي هذا الحديث الذي نحن بصدده من مناكير حسام بن مصك في ترجمته (٢/ ٤٣٤).

وخلاصة القول: أن هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ من قوله، وإنما الصحيح أنه من قول شداد بن أوس -رضي الله عنه- كما سبق تخريجه قريبًا.

(١) أخرجه الإمام أحمد في كتابه «الزهد» (ص ٣٩٥) من طريق أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب عن رسول الله ﷺ، ولفظه: «أول شيء يُرفع من هذه الأمة الأمانة والخشوع، حتى لا تكاد ترى خاشعًا».

قلت: وهو حديث مرسل، ضمرة بن حبيب لم يسمع من النبي ﷺ، والمرسل من أقسام الضعيف كما هو معلوم، وفي إسناده أيضًا: أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف واهٍ كثير التخليط.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥١٦/ ٨٤٤٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٤٠- الرشد)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٨١)، وأحمد في «الزهد» (ص١٧٩) من طريق: عكرمة بن عمار، عن أبي عبد الله الفلسطيني، عن عبد العزيز بن أخ لحذيفة قال: سمعته من حذيفة منذ خمس وأربعين سنة قال: قال حذيفة -رضي الله عنه-: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة».

قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه عبد العزيز ابن أخي حذيفة لا يُعرف حاله، ولم يوثقه أحد من الأئمة المعتبرين، إنما ذكره ابن حبان في التابعين من كتاب الثقات، وقال: لا صحبة له. وبعضهم ذكره في الصحابة، وهو وهم.

والراوي عنه أبو عبد الله الفلسطيني وهو حميد بن زياد اليمامي أو اليماني، مجهول الحال أيضًا، ولم أر أحدًا وثَّقه اللهم إلا أن ابن حبان ذكره في كتابه «الثقات»، وابن حبان معروف بتساهله الشديد في التوثيق، فهو يُوثِّق المجاهيل والضعفاء.

وعليه فإن هذا الأثر لا يصح عن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه-، والله أعلم.

[العلم النافع هو ما باشر القلب]

فالعلم النافع هو ما باشر القلوبَ فأوجبَ لَها السكينةَ والْخَشية والإخبات[1] لله والتواضع والانكسار له، وإذا لَم يباشر القلب ذلك من العلم، وإنَّما كان على اللسان فهو حُجَّةُ الله على ابن آدم يقوم على صاحبه وغيره، كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: «إن أقوامًا يقرأون القرآن لا يُجاوزُ تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فَرَسَخَ فيه نفع»[2]، خرجه مسلم.

وقال الحسن -رَحِمَهُ الله تعالى-: «العلمُ عِلْمَان: علمٌ باللسان، وعلمٌ بالقلب: فعلمُ القلب هو: العلم النافع، وعلم اللسان هو حُجة الله على ابن آدم»[3].

ورُوي عن الحسن -رَحِمه الله تعالى- مُرسلاً عن النبي ﷺ[4].

---

(١) الإخبات: هو الخشوع، يُقال: «أخبتَ لله تعالى»؛ أي: خَشَع له.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨٢٢) من حديث أبي وائل عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، ولفظه: «جاء رجلٌ يُقال له نَهيك بن سنان إلى عبد الله. فقال: يا أبا عبد الرحمن! كيف تقرأ هذا الحرف. ألفًا تجده أم ياءً: من ماءٍ غير آسن أو من ماء غير ياسن؟ قال: فقال عبد الله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال: إني لأقرأ المفصَّل في ركعة. فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشِّعر؟ إنَّ أقوامًا يقرءون القرآن لا يُجاوزُ تراقيهم. ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع. إن أفضل الصلاة الركوع والسجود. إني لأعلم النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهنَّ. سورتين في كل ركعة. ثم قام عبد الله فدخل علقمة في إثره. ثم خرج فقال: قد أخبرني بِها.
وأخرجه البخاري في «صحيحه» (٥٠٤٣) أيضًا لكن باختصار، وليس فيه موضع الشاهد.

(٣) أخرجه الدارمي في «سننه» (٣٦٤) من طريق: مكي بن إبراهيم، عن هشام، عن الحسن -رحمه الله- به.
قلت: وإسناده صحيح إلى الحسن، وهو موقوف عليه.

(٤) أخرجه الدارمي في «سننه» (٣٦٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٨٢- الرشد)، وابن المبارك في كتابه «الزهد» (١١٦١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» =

وروي عنه عن جابر -رضي الله عنه- مرفوعًا[1].

=

(١١٥٠)، والحكيم الترمذي في «النوادر» -كما في «كنز العمال» (٢٧٦٦٧)-، من طريق: هشام وهو ابن حسان الأزدي، عن الحسن مرسلاً عن النبي ﷺ.

قلت: وهذا إسناد ضعيفٌ، وفيه عدة علل:

الأولى: الإرسال، ومعلومٌ أن مراسيل الحسن من أضعف المراسيل عند أهل الحديث.

الثانية: أن سماع هشام بن حسان من الحسن فيه نظر.

الثالثة: أن هشام بن حسان اختلف عليه في إسناد هذا الحديث، فمرة يُروىٰ عنه عن الحسنِ موقوفًا عليه من قوله كما سبق من رواية مكي بن إبراهيم عنه.

ومرة يروىٰ عنه عن الحسن مرسلاً عن النبي ﷺ كما هنا.

ومرة يروىٰ عنه عن الحسن عن جابر مرفوعًا به!!، وسيأتي الكلام عن هذه الرواية.

قلتُ: فهذه ثلاث علل تُوجبُ ضعف هذا الإسناد.

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٦٤)، وعنه ابن الجوزي في كتابه «العلل المتناهية» (٨٨) من طريق: يحيىٰ بن يمان، عن هشام بن حسان، عن الحسن عن جابر -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قلت: وهذا إسناد ضعيفٌ أيضًا، وفيه عدة علل:

الأولى: أن الحسن لم يُصرِّح بالسماع من جابر -رضي الله عنه-، والصحيح أنه أدركه إلا أنه يروي عنه من كتاب كما قال أبو حاتم -رحمه الله-.

الثانية: أن هشام بن حسان اختلف عليه في إسناد هذا الحديث، كما سبق بيانه، والصحيح في إسناده أنه عن الحسن من قوله موقوفًا عليه.

الثالثة: أن يحيىٰ بن يمان فيه مقال، قال الإمام أحمد: ليس بحجة في الحديث. وقال أبو داود: يخطئ في الأحاديث ويقلبها.

هذا، والحديث ضعَّفه كذلك:

١] الإمام ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٨٣).

٢] والحافظ ابن رجب كما ذكر أعلاه بقوله: «ولا يصح وصله».

٣] والعلاَّمة الألباني -رحمه الله- في «ضعيف الجامع» (٣٨٧٨)، وفي «ضعيف الترغيب والترهيب» (٦٨)، وفي «السلسلة الضعيفة» (٣٩٤٥).

وعنه عن أنس -رضي الله عنه- مرفوعًا[1] ولا يصحُّ وصلُه.

[أهل الكتاب لم تنفعهم الكتب التي بأيديهم]

فأخبر النبي ﷺ أن العلم عند أهل الكتابين مِن قَبلنا موجودٌ بأيديهم ولا ينتفعونَ بشيء منه لَمَّا فقدوا المقصود منه، وهو وصوله إلى قلوبهم حتى يَجدوا حلاوة الإيمان به ومنفعته بِحصول الخشية والإنابة لقلوبهم، وإنَّما هو على ألسنتهم تقوم به الْحُجَّة عليهم.

[العلماء هم أهل الخشية من الله]

ولِهذا الْمَعنى وَصَفَ الله تعالى في كتابه العلماء بالْخَشية كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٤/ ١٠١)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٩)، وعلقه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١١٥١) عن يوسف بن عطية، عن قتادة، عن الحسن، عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- مرفوعًا.

قلت: وهذا إسناد ضعيفٌ جدًّا، فيه يوسف بن عطية وهو هالك ومتفق على ترك حديثه. والرواي عنه وهو أبو الصلت الهروي ضعيف، بل قال ابن الجوزي: وهو كذاب بإجماعهم.

هذا، وقد ضعَّف الحديث أيضًا:

١] ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٨٣).

٢] والحافظ ابن رجب كما ذكر أعلاه بقوله: «ولا يصح وصله».

٣] والعلامة الألباني -رحمه الله- في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٦٩)، وفي «السلسلة الضعيفة» (٣٩٤٥).

ووصف العلماء من أهل الكتاب قبلنا بالخشوع كما قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

فقوله -تبارك وتعالى- في وصف هؤلاء الذين أوتوا العلم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ مدحٌ لِمَن أوجب له سماع كتاب الله الْخُشوع في قلبه.

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣]. ولين القلوب هو زوال قسوتها بِحدوث الْخُشوع فيها والرقة.

[ذم من لا يخشع لسماع القرآن]

وقد وبَّخ[1] الله من لا يَخشعُ قلبُه لسماع كلامه وتدبره، قال سبحانه:

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بِهذه الآية إلاَّ أربع سنين». خرَّجه مسلم[2].

وخرَّجه غيره، وزاد فيه: «فجعل المسلمون يعاتب بعضهم بعضًا»[3].

---

(١) التوبيخ: هو التهديد والتأنيب. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (وبخ).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٣٠٢٧) عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، ولفظه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بِهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلا أربع سنين».

(٣) لم أقف علىٰ تخريج هذه الزيادة التي أوردها المصنِّف -رحمه الله-، فلعله ساقها بالمعنىٰ، ولعله يقصد رواية أبي يعلىٰ في «مسنده» (٥٢٥٦) وفيها زيادة: «وأقبل بعضنا علىٰ بعض: أي شيء أحدثنا؟ أي شيء صنعنا؟».

وهذه الرواية حكم عليها محقِّق «مسند أبي يعلىٰ» حسين سليم أسد بأن إسنادها =

وخرَّج ابنُ ماجة من حديث ابن الزُّبير -رضي الله عنه- قال: «لَم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآيةُ يُعاتبهم اللهُ بِهَا إلاَّ أربع سنين»[1].

[أحوال الصالحين حين سماعهم لكلام رب العالمين]

وقد سمع كثيرٌ من الصالِحين هذه الآية تُتلى، فأثَّرت فيهم آثارًا متعددة فمنهم من مات عند ذلك لانصداع[2] قلبه بها، ومنهم من تابَ عند ذلك وخرج عما كان فيه.

=

ضعيف؛ وذلك للانقطاع بين عون بن عبد الله، وابن مسعود فهو لم يدركه، وروايته عنه مرسلة.

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤١٩٢) عن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه-.
قال البوصيري في «الزوائد»: «إسناده صحيح رجاله ثقات».
وحسَّنه العلامة الألباني -رحمه الله- في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨٠).
قلت: بَيْد أنَّ في إسناده موسىٰ بن يعقوب وهو ابن عبد الله بن وهب بن زمعة بن الأسود الزمعي، وقد وثَّقه ابن معين، وابن القطان، لكنَّ تكلم فيه آخرون، قال علي ابن المديني: ضعيف الحديث منكر الحديث. وقال النسائي: ليس بالقوي.
وقال الأثرم: سألت أحمد عنه فكأنه لم يعجبه. وقال الساجي: اختلف أحمد ويحيىٰ فيه. قال أحمد: لا يعجبني حديثه.
ولذلك قال فيه الحافظ ابن حجر في «التقريب»: صدوق سيئ الحفظ.
قلت: ومما يدل علىٰ سوء حفظه أنه روىٰ الحديث مرةً عن أبي حازم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عبد الله بن الزبير من قوله. كما عند ابن ماجه في «السنن» (٤١٩٢).
ورواه مرة عن أبي حازم، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عبد الله بن الزبير، عن عبد الله بن مسعود من قوله!!.
كما عند الحاكم في «المستدرك» (٣٧٨٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/٨)، والبزار في «البحر الزخار» (١٤٤٣).
قال البزار: «وهذا الحديث لا نعلمه يُروىٰ عن عبد الله بن مسعود إلا بهذا الإسناد، ولا نعلم روىٰ ابن الزبير عن ابن مسعود إلا هذا الحديث». انتهىٰ

(٢) الصَّدْعُ: هو الشَّقُّ، يُقال: صدعه فانصدع؛ أي: انشق. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (صدع).

وقد ذكرنا أخبارَهم في كتاب «الاستغناء بالقرآن»[١].

وقال تعالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

قال أبو عِمران الجَوني: «والله لقد صرف إلينا ربُّنا في هذا القرآن ما لو صرفه إلى الجبال لحتَّها وجباها»[٢].

وكان مالكُ بن دينار -رحمه الله- يقرأ هذه الآية ثُم يقول: «أقسم لكم، لا يؤمن عبدٌ بِهذا القرآن إلا صُدِّع قلبه»[٣].

ورُوِي عن الحسن -رَحمهُ الله تعالَى- قال: «يا ابن آدم إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة أو حدَّثت بِهَا نفسك فاذكر عند ذلك ما حَمَّلك الله من كتابه مِمَّا لو حَمَلتهُ الْجِبَال الرواسي لخشعت وتصدَّعت أما سمعته يقول:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١][٤].

فإنَّما ضرب لك الأمثال لتتفكر فيها وتعتبر بِهَا وتزدجر[٥] عن معاصي

(١) وهو من الكتب المفقودة، والتي ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في «هداية العارفين» كما أفاده الأستاذ همام عبد الرحيم سعيد في قسم الدراسة من تحقيقه لشرح علل الترمذي (١/ ٢٦٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣١١) من طريق: أبي حامد بن جبلة عن محمد بن إسحاق، عن عبيد الله بن زياد، عن سيار، عن جعفر قال: سمعت أبا عمران... فذكره.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٨) من طريق: محمد بن محمد بن عبد الله الجرجاني، عن أحمد بن عيسى التنيسي، عن مؤمل بن إهاب، عن سيار، عن جعفر قال: سمعت مالك بن دينار... فذكره.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) الزَّجْرُ: هو المنع والنهي، يُقال: «زَجَرَه فازدجر»؛ أي: امتنع.

الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأنتَ يا ابن آدم أحقُّ أن تَخشع لذكر الله وما حَمَّلك من كتابه وآتاك من حِكَمِهِ؛ لأنَّ عليك الحساب ولك الْجَنَّة أو النار.

[استعاذة النبي ﷺ من قَلبٍ لا يَخشع]

وقد كان النبيُّ ﷺ يستعيذُ بالله من قلب لا يَخشع كما في «صحيح مسلم»، عن زيد بن أرقم: أن النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ من علم لا ينفع، ومن قلبٍ لا يَخْشَع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجابُ لَهَا»[1].

وقد رُوي نَحوه عن النبي ﷺ من وجوه متعددة[2].

ويُروىٰ عن كعب الأحبار قال: مكتوب في الإنجيل: «يا عيسىٰ، قلبٌ لا يَخشع عمله لا ينفع، وصوتُه لا يُسمع، ودعاؤه لا يُرفع»[3].

[حال المؤمنين لما جاءتهم الدعوة من الله]

قال أسد بن موسىٰ في كتاب «الورع»: حَدَّثنا مُبارك بن فَضالة قال: كان الحسن -رَحمهُ الله تعالَىٰ- يقول: إن المؤمنين لَمَّا جاءتهم هذه الدعوة من الله صدَّقوا بِهَا وأفضىٰ يقينها إلى قلوبهم خشعت لذلك قلوبُهم وأبدانهم وأبصارهم، كنت والله إذا رأيتهم رأيت قومًا كأنَّهم رأيُ عين، فوالله ما كانوا بأهل

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

(٢) ورد أيضًا من مسند عبد الله بن عمرو، وأبي هريرة، وأنس بن مالك، وعبد الله بن أبي أوفىٰ، وعبد الله بن مسعود، وجرير بن عبد الله، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وغيرهم رضي الله عنهم جميعًا.

وانظر: «سنن الترمذي» (٣٤٨٢)، و«سنن النسائي» (٨/ ٢٥٤، ٢٦٣، ٢٨٤)، و«سنن ابن ماجة» (٢٥٠)، و(٣٨٣٧)، و«مسند أحمد» (٢/ ١٦٧، ١٩٨، ٣٤٠، ٣٦٥، ٤٥١)، (٣/ ١٩٢، ٢٥٥)، و(٤/ ٣٨١)، وغيرها من كتب السُّنة.

(٣) لم أقف عليه.

جـدل ولا باطل ولا اطمأنوا إلاَّ إلى كتاب الله، ولا أظهروا ما ليس في قلوبهم، ولكن جاءهم عن الله أمرٌ فصدَّقوا به فنَعتهم الله تعالَىٰ في القرآن أحسن نعت فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.

قال الحسن: الْهَونُ في كلام العرب اللين والسكينة والوقار.

قال: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال: حلمـاء لا يَجهلون، وإذا جُـهِلَ عليهم حَـلموا، يُصاحبون عبادَ الله نهارَهم بِما تسمعون، ثُم ذكر ليلهم خَيْر ليل فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٤].

ينتصبون لله علىٰ أقدامهم ويفترشون وجوههم لربهم سُجَّدًا تَجري دموعهم علىٰ خُدودهم فَرَقًا[١] من ربِّهم لأمر ما أسهروا له ليلهم، ولأمرٍ ما خشعوا له نَهارهم ثُم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥].

قال: وكل شيء يُصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام[٢]، إنَّما الغرامُ اللازم له ما دامت السماوات والأرض، قال: صدق القومُ، والله الذي لا إله إلا هو فعملوا ولَم يتمنوا فإيَّاكم -رحمكم الله- وهذه الأماني، فإنَّ الله لَم يُعط عبدًا بالأمنية خيرًا قط في الدنيا والآخرة، وكان يقول: يا لَها موعظة لو وافقت من القلوب حياةً[٣].

---

(١) فرقًا: أي خوفًا، والفرَق هو الخوفُ. انظر «مختار الصحاح»، مادة (فَرق).
(٢) الغرام: الشر الدائم والعذاب. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (غرم).
(٣) لم أقف عليه.

فصل

[في بيان الخشوع في الصلاة]

وقد شرع الله لعباده من أنواع العبادات ما يَظْهر فيه خشوع الأبدان الناشئ عن خشوع القلب وذُلّه وانكساره، ومن أعظم ما يظهر فيه خشوع الأبدان لله تعالى من العبادات الصلاة وقد مدح الله تعالى الخاشعين فيها بقوله -عَزَّ وَجَلَّ-:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

وقد سبق بعض ما قاله السلف في تفسير الخشوع في الصلاة.

وقال ابنُ لَهيعة، عن عطاء بن دينار -رَحمه الله تعالَى-، عن سعيد بن جُبير -رَحِمهُ الله تعالَى-:

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ يعني: متواضعين لا يعرفُ مَنْ عن يَمينه ولا مَن عن شماله، ولا يلتفتُ من الخشوع لله -عَزَّ وَجَلَّ-[1].

وقال ابنُ المبارك، عن أبي جعفر، عن ليث، عن مُجاهد: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

قال: القنوتُ: الركون والخشوع وغضُّ البصر وخفض الجناح[2] من رهبة الله -عَزَّ وَجَلَّ-[3].

---

(١) لم أقف على تخريجه، لكنَّ في إسناده عبد الله بن لهيعة، وهو مشهور بالضعف.

(٢) الجناح: هو الجانب. وانظر «لسان العرب»، مادة (جنح).

(٣) أخرجه ابن المبارك في كتابه «الزهد» (١٠٧٧)، وعنه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٢)، =

قال: وكان العلماءُ إذا قام أحدهم في الصلاة هابَ[1] الرحمن -عَزَّ وَجَلَّ- أن يشد نظره أو يلتفت أو يُقلِّب الحصىٰ أو يعبث بشيء أو يُحدِّث -يعني: نفسه- بشيء من الدنيا إلا ناسيًا ما دام في صلاته[2].

وقال منصور، عن مُجاهد -رَحِمهُ الله تعالَىٰ- في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩]. قال: الخشوع في الصلاة[3].

وخرَّج الإمام أحمد، والنسائي، والترمذي من حديث الفَضْل بن عباس -رضي الله عنهما-، عن النبي ﷺ قال:

«الصلاةُ مَثْنَى مَثْنَى تشهد في كل ركعتين وتَخشع وتضرع وتَمسكن، وتقنع[4] يديك، يقول: ترفعهما إلى ربك -عَزَّ وَجَلَّ- وتقول: يا ربِّ، يا ربِّ، يا ربِّ ثلاثًا، فمن لَم يفعل ذلك فهي خَداج[5]»[6].

=

ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٣٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٥٢) من طريق: ليث عن مجاهد به.

قلت: وإسناده ضعيف، فيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف مشهور بالضعف.

(١) الهيبة والمهابة: هي الإجلال والمخافة. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (هيب).

(٢) قلت: وهذا الكلام من كلام الإمام البيهقي -رحمه الله- في كتابه «شعب الإيمان» (٣/ ١٤٧- دار الكتب العلمية)، وصنيع المؤلف -رحمه الله- يُوهم أنه من كلام مجاهد -رحمه الله- وليس الأمر كذلك!.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٨٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢/ ٢٨٧)، وعبد الله بن المبارك في «الزهد» (١٧٣)، والطبري في «التفسير» (٢٦/ ٧٠) من طريق منصور عن مجاهد به.

(٤) القُنُوع: هو السؤال والتذلل. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (قنع).

(٥) خداج: أي ناقصة. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (خدج).

(٦) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٨٥)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (٦١٥، ١٤٤٠)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢١١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٢٩٥)، وفي «المعجم الأوسط» (٨٦٣٢)، وفي «الدعاء» (٢١٠)، والبزار في «البحر الزخار» =

(٢١٦٩)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢/ ٤٨٧)، وعبد الله بن المبارك في «الزهد» (١١٥٢)، وفي «مسنده» (٥٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٢٨٣/ ٩٧٢)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٣١٠/ ٨٩٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٣٢٥) وغيرهم من طريق الليث بن سعد عن عبد ربه بن سعيد عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الله بن نافع بن العمياء، عن ربيعة بن الحارث، عن الفضل بن عباس -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قلت: وقد تابع شعبةُ بن الحجاج الليثَ بنَ سعد علىٰ هذا الحديث عن عبد ربه بن سعيد إلا أن شعبة -رحمه الله- أخطأ في إسناد هذا الحديث ووهم فيه وهمًا شديدًا في عدة مواضع فقال: عن أنس بن أبي أنس وهو عمران بن أبي أنس.

وقال: عن عبد الله بن الحارث، وإنما هو عبد الله بن نافع بن العمياء، عن ربيعة بن الحارث.

وقال شعبة: عن عبد الله بن الحارث، عن المطلب، عن النبي ﷺ وإنما هو عن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، عن الفضل بن عباس، عن النبي ﷺ.

وقد أخرجه بهذا الإسناد الخاطئ:

أبو داود في «سننه» (١٢٩٦)، وابن ماجه في «سننه» (١٣٢٥)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ١٦٧)، والدارقطني في «سننه» (١/ ٤١٨)، والطيالسي في «مسنده» (١٣٦٦)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢/ ٤٨٨)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (٦١٦، ١٤٤١)، وابن الجعد في «مسنده» (١٥٦٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٤٧٩)، والطبراني في «الدعاء» (٢١١)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٢٦)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٣١٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٣٢٥، ٣٢٦) كلهم من طريق: شعبة، عن عبد ربه بن سعيد، عن أنس بن أبي أنس، عن عبد الله ابن نافع، عن عبد الله بن الحارث، عن المطلب، عن النبي ﷺ به.

قال أبو عيسىٰ: «سمعتُ محمد بن إسماعيل يقول: روىٰ شعبة هذا الحديث عن عبد ربه بن سعيد، فأخطأ في مواضع، فقال: عن أنس بن أبي أنس، وهو عمران بن أبي أنس، وقال: عن عبد الله بن الحارث، وإنما هو عبد الله بن نافع بن العمياء عن ربيعة بن الحارث، وقال شعبة: عن عبد الله بن الحارث عن المطلب عن النبي ﷺ، وإنما هو عن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، عن الفضل بن عباس، عن النبي

=

ﷺ. قال محمد: وحديث الليث بن سعد هو حديث صحيح، يعني أصح من حديث شعبة». انتهىٰ

وفي «التاريخ الكبير» أورد الإمام البخاري رواية الليث وشعبة ثم قال: «وقد توبع الليث وهو أصح». انتهىٰ

وقال الطبراني في «المعجم الأوسط»: «لم يُجوِّد إسناد هذا الحديث أحدٌ ممن رواه عن عبد ربه بن سعيد إلا الليث. ورواه شعبة عن عبد ربه بن سعيد، فاضطرب في إسناده». انتهىٰ

وقال في كتابه «الدعاء»: «وضبط الليث إسناد هذا الحديث، ووهم فيه شعبة». انتهىٰ

وقال البيهقي في «السنن الكبرىٰ»: «خالفه -أي: الليث- شعبة في إسناده». انتهىٰ

وقال النسائي في «السنن الكبرىٰ»: «خالفه -أي: الليث- شعبة بن الحجاج».

وقال في موضع آخر: «ما نعلم أحدًا روىٰ هذا الحديث غير الليث وشعبة علىٰ اختلافهما فيه». انتهىٰ

قلت: ومما يؤكد صحة حديث الليث ووهم شعبة أن ابن لهيعة تابع الليث علىٰ هذا الحديث بنفس إسناد الليث، كما عند ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٣٢٥)، وابن لهيعة ضعيف، ولكن الضعيف قد يحفظ أحيانًا كما هو الحال هنا.

قلت: ومن هنا تعلم خطأ ما قاله العلامة أحمد شاكر -رحمه الله- في تعليقه علىٰ «سنن الترمذي» من أنه لم يجد ما يُرجِّح به بين الروايتين -رواية الليث ورواية شعبة- علىٰ الأخرىٰ، لأن كلاهما إمام كبير، وحافظ متقن!!.

مع أن هؤلاء الحفاظ الكبار -وعلىٰ رأسهم إمام المحدثين وجبل الحفاظ المتقنين الإمام البخاري- قد نصوا علىٰ ترجيح رواية الليث علىٰ رواية شعبة!!، فكان الواجب عليه -رحمه الله- أن يُتابع هؤلاء الحفاظ الكبار، وأن يعتبر بكلامهم، ويأخذ برأيهم؛ لأنهم أعرف الناس بهذه الصناعة!!.

وعلىٰ أية حال فإن الحديث ضعيف؛ لأن في كلا الروايتين -رواية الليث، ورواية شعبة-: عبد الله بن نافع بن العمياء. قال ابن المديني: مجهول. وقال البخاري: لم يصح حديثه.

هذا، وقد ضعَّف الحديث كلٌّ من الإمام البخاري، والعلامة الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢٨٢)، و«ضعيف الجامع» (٣٥١٢)، وفي مواضع أخرىٰ من كتبه، وضعَّفه كذلك الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند في عدة مواضع.

وفي صحيح مسلم، عن عثمان -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ قال:

«ما من امرئ مسلم تَحضره صلاةٌ مكتوبةٌ فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلاَّ كان كفارةً لِمَا قبلها من الذنوب مَا لَمْ تُؤْتَ كبيرة وذلك الدهر كله»[1].

[وضع اليمنى على اليسرى من مظاهر الخشوع في الصلاة]

فمِمَّا يَظْهَرُ فيه الخشوعُ والذلُّ والانكسارُ من أفعال الصلاة وضعُ اليدين إحداهُما على الأخرىٰ في حال القيام.

وقد رُوي عن الإمام أحمد -رحمه الله- أنه سُئِلَ عن المراد بذلك فقال: «هو ذُلٌّ بين يدي عزيز».

قال علي بن مُحمد المصري الواعظ -رَحمه الله تعالَىٰ-: ما سمعتُ في العلم بأحسن من هـذا.

ورُوي عن بشر الْحَافي -رَحِمه الله تعالَىٰ- أنَّهُ قال: «أشتهي منذ أربعين سنةً أن أضع يدًا علىٰ يد في الصلاة ما يَمنعُني من ذلك إلاَّ أن أكون قد أظهرت من الخشوع ما ليس في القلب مثله»[2].

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٢٨) من حديث عثمان بن عفان -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٩٩/ ٧٧١٢) من طريق أبي القاسم الطوسي قال: سمعتُ حسينًا الخياط يقول: سمعت بشر بن الحارث يقول: ... فذكره.

قال شيخنا العلامة المحدِّث الجليل محمد عمرو عبد اللطيف -حفظه الله ورعاه- في كلام نفيس جدًّا معلِّقًا به علىٰ الأثر الذي يُروىٰ عن بشر -رحمه الله-، قال: «ومداره علىٰ أبي القاسم الطوسي، وفيه جهالة. فقد ترجم له الخطيب برواية عبد الرحمن بن محمد الزهري وحده عنه، وسكت عنه وقد اضطرب في شيخه، فتارة يرويه عن أبي علي بن عاصم الطبيب، وتارة يرويه عن حسين الخياط، وأبو علي فيه جهالة أيضًا، فقد ترجم له الخطيب برواية هـذا الطوسي، وأحمد بن المغلس =

وروىٰ محمد بن نصر المروزي -رَحِمَهُ الله تعالَىٰ- بإسناده عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: يُحشر الناس يوم القيامة علىٰ قدر صنيعهم في الصلاة، وفسره بعض رواته فقبض شماله بيمينه وانحَنىٰ هكذا[1].

=

الحماني -أحد الكذابين- عنه، وسكت عليه أيضًا. وحسين هو ابن محمد بن عبد الرحمن الخياط، ترجمه الخطيب أيضًا (٨/ ٩٢) ولم يُفد عن حاله شيئًا؛ فهذا الكلام لا يصح عن الإمام بشر -رحمه الله-.

وهذا كلام متهافت يَجِلُّ عنه هذا الرجل الذي كان يشبه الإمام أحمد في الجلالة لكنه سلك سبيل الزهاد المنقطعين للعبادة، وكف عن التحديث بعد سماعه الكثير، ففاقه الإمام أحمد -رحمه الله- حيث جمع بين الزهد والورع، وبين طلب العلم وتعليمه، والجهاد في سبيل نصرة الدين والسنة، فكان بحق كما قال المصطفىٰ ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يُخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»، أما هذا الكلام فهو أشبه بالفلسفات الصوفية والترهات المخالفة لتعاليم الشريعة الغراء.

وبشر إمام جليل عالم بالسنة، فكيف يقول ذلك، وقد رُوي عنه أنه عدَّ حُبَّ أصحاب النبي ﷺ أفضل أعماله عند الله (أو كلامًا يشبه هذا) فكيف يتبع غير سبيلهم في صلاة أو غيرها؟! وقديمًا رد العالمون بأحوال الرسول ﷺ، وبروح شريعته هذه التعللات المتكلفة، فمن ذلك ما رواه أحمد في «الزهد» (٢٦٤)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٧١) بسند صحيح عن روح بن القاسم أن رجلاً من أهله تنسك، فقال: لا آكل الخبيص أو الفالوذج، لا أقوم بشكره، قال: فلقيت الحسن، فقلت له في ذلك، فقال الحسن: هذا إنسان أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد؟!. صدق شيخ الإسلام -رحمه الله- ونصح. وقد روىٰ ابن سعد (٧/ ١٢٨) أنه قال ذلك في حق فرقد السبخي، ولكن في إسناده حجاج بن نصير، وهو واهٍ» انتهىٰ كلامه -حفظه الله-، وهو كلام قيم جدًا.

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتابه «تعظيم قدر الصلاة» (٣٣١) قال: حدثنا محمود بن غيلان قال: حدثنا أبو النضر، قال: حدثنا سعيد المؤدب، عن سفيان الثوري، عن أبي مالك، عن أبي حازم، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: يُحشر الناس يوم القيامة علىٰ قدر صنيعهم في الصلاة. وقبض أبو النضر شماله بيمينه وانحنىٰ هكذا.

=

وبإسناده عن أبي صالِح السمَّان -رَحمهُ الله تعالَىٰ- قال: يُبعثُ الناسُ يوم القيامة هكذا، ووضع إحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ[1].

وملاحظة هذا المعنىٰ في الصلاة يُوجبُ للمصلي أن يتذكر وقوفه بين يدي الله -عَزَّ وَجَلَّ- للحسـاب.

كان ذو النون -رَحمهُ الله تعالَىٰ- يقول في وصف العُبّاد: «لو رأيت أحدهم وقد قام إلى صلاته فلمَّا وقف في مِحرابه واستفتحَ كلام سيِّده، خطر علىٰ قلبه أنَّ ذلك المقام هو المقام الذي يقوم الناسُ فيه لرب العالمين فانْخَلع قلبه وذهل[2] لبه».

خرَّجه أبو نُعيم -رَحمهُ الله تعالَىٰ-[3].

=

قلت: وإسناده صحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتابه «تعظيم قدر الصلاة» (٣٣٢) قال: حدثنا أبو قدامة، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن ذكوان (وهو أبو صالح السمان) قال: يُبعث الناس يوم القيامة هكذا، ووضع إحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ، ووضع عبد الرحمن (وهو ابن مهدي) يمينه علىٰ يساره.
قلت: وإسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين.

(٢) ذَهَل عن الشيء: أي نسيه وغفل عنه. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (ذهل).

(٣) قلت: وهو جزءٌ من أثر طويل جدًّا رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٣٩، ٣٤٠) قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر من أصله، قال: حدثنا أبو بكر الدينوري المفسر سنة ثمان وثمانين ومائتين، قال: حدثنا محمد بن أحمد الشمشاطي قال: سمعت ذا النون المصري يقول:
«إن لله عبادًا ملأ قلوبَهم من صفاء محض محبته، وهيَّج أرواحهم بالشوق إلىٰ رؤيته، فسبحان من شوَّق إليه أنفسهم، وأدنىٰ منه هممهم، وصفت له صدورهم، سبحان موفقهم ومؤنس وحشتهم وطبيب أسقامهم، إلهي لك تواضعت أبدانهم منك إلىٰ الزيادة، انبسطت أيديهم ما طيبت به عيشهم، وأدمت به نعيمهم، فأذقتهم من حلاوة الفهم عنك ففتحت لهم أبواب سمواتك، وأتحت لهم الجواز في ملكوتك، بك
=

=

أنست محبة المحبين، وعليك مُعوَّل شوق المشتاقين، وإليك حنَّت قلوب العارفين، وبك أنست قلوب الصادقين، وعليك عكفت رهبة الخائفين، وبك استجارت أفئدة المقصرين، قد بسطت الراحة من فتورهم، وقل طمع الغفلة فيهم، لا يسكنون إلى محادثة الفكرة فيما لا يعنيهم ولا يفترون عن التعب والسهر، يناجونه بألسنتهم ويتضرعون إليه بمسكنتهم، يسألونه العفو عن زلاتِهم، والصفح عما وقع الخطأ به في أعمالهم، فهم الذين ذابت قلوبُهم بفكر الأحزان، وخدموه خدمة الأبرار الذين تدفقت قلوبهم ببره، وعاملوه بِخالص من سره حتىٰ خفيت أعمالهم عن الحفظة، فوقع بِهم ما أمَّلوا من عفوه، ووصلوا بِها إلىٰ ما أرادوا من محبته، فهم والله الزهاد والسادة من العباد، الذين حملوا أثقال الزمان، فلم يألموا بحملها، وُفِّقوا في مواطن الامتحان فلم تزل أقدامهم عن مواضعها حتىٰ مال بِهم الدهر، وهانت عليهم المصائب، وذهبوا بالصدق والإخلاص عن الدنيا، إلهي فيك نالوا ما أملوا، كنت لهم سيدي مؤيدًا ولعقولهم مؤديًا حتىٰ أوصلتهم أنت إلىٰ مقام الصادقين في عملك، وإلىٰ منازل المخلصين في معرفتك، فهم إلىٰ ما عند سيدهم متطلعون، وإلىٰ ما عنده من وعيده ناظرون، ذهبت الآلام عن أبدانهم لما أذاقهم من حلاوة مناجاته، ولما أفادهم من ظرائف الفوائد من عنده، فيا حسنهم والليل قد أقبل بحنادس ظلمته، وهدأت عنهم أصوات خليقته، وقدموا إلىٰ سيدهم الذين له يأملون، فلو رأيت أيها البَطَّال أحدهم وقد قام إلى صلاته وقراءته، فلما وقف في محرابه واستفتح كلام سيده خطر على قلبه أن ذلك المقام هو المقام الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين؛ فانخلع قلبه، وذهل عقله، فقلوبهم في ملكوت السموات معلقة، وأبدانُهم بين أيدي الخلائق عارية، وهمومهم بالفكر دائمة، فما ظنك بأقوام أخيار أبرار، وقد خرجوا من رق الغفلة، واستراحوا من وثائق الفترة، وأنسوا بيقين المعرفة، وسكنوا إلىٰ روح الجهاد والمراقبة، بلغنا الله وإياكم هذه الدرجة».

قلت: وهو أثر جليل المعنىٰ، ولذلك سقته بتمامه، غير أن سنده -للأسف- لم يصح.

قال شيخنا العلامة المحدِّث الجليل محمد عمرو عبد اللطيف -حفظه الله ورعاه-: «والدينوري وشيخه لم أجد لهما ترجمة. نعم، هناك أبو بكر الدينوري محمد بن أبي يعقوب، ترجم له الخطيب (٣/ ٣٩٠) وقال: «وفي حديثه غرائب ومناكير». وقال الذهبي (٤/ ٧٠): «حدث ببغداد عن ... و... وطائفة بمناكير وعجائب». وهو من هذه الطبقة، لكنني لم أر من وصفه بـ«المفسر»، فالله أعلم». انتهىٰ

[عدم الالتفات في الصلاة من مظاهر الخشوع فيها]

ومن ذلك إقبالُه على الله -عَزَّ وَجَلَّ- وعدم التفاته إلى غيره، وهو نوعان:

[أنواع الالتفات]:

أحدهما: عدمُ التفات قلبه إلى غير من هو مناج له، وتفريغُ القلبِ للربِّ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وفي «صحيح مسلم» عن عمرو بن عَبَسَة -رضي الله عنه-، عن النبيِّ ﷺ أنه ذكر فضل الوضوء وثوابه، ثم قال: «فإن هو قام فصلَّى فَحمد الله وأثْنَى عليه ومجده بالذي هو أهله، وفرَّغ قلبَه لله إلاَّ انصرف من خطيئته كيوم ولدته أمُّه»[1].

والثاني: عدمُ الالتفات بالبصر يَمينًا وشمالاً وقَصر النظر على موضع السجود وهو من لوازم الخشوع للقلب وعدم التفاته.

ولِهذا رأى بعضُ السَّلَف مُصلِّيًا يعبث في صلاته فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه». وقد سبق ذكره[2].

وخرَّج الطبراني من حديث ابن سيرين، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال:

«كان النبيُّ ﷺ يلتفتُ في الصلاة عن يَمينه وعن يساره، ثم أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾، فخشع رسول الله ﷺ فلم يكن يلتفت يَمنة ولا يسرة».

ورواه غيره عن ابن سيرين -رَحمهُ الله تعالَى- مرسلاً وهو أصحُّ[3].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨٣٢) عن عمرو بن عبسة السلمي مرفوعًا مطولاً جدًّا.

(٢) قد تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٠٨٢) عن علي بن سعيد، عن حبرة بن لخم الإسكندراني، عن عبد الله بن وهب، عن جرير بن حازم، عن عبد الله بن عون، =

عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قال الطبراني -رحمه الله-: «لم يرو هذا الحديث عن ابن عون إلا جرير، ولا عن جرير إلا ابن وهب، تفرد به حبرة».

قلت: وهو (أي: حبرة بن لخم) آفة هذه الرواية وسبب ضعفها، وقد أخطأ في وصل هذه الرواية؛ وذلك لأن الصحيح: ابن عون عن ابن سيرين مرسلاً، وليس موصولاً، فذكر أبي هريرة في هذا الإسناد خطأ وليس بصواب كما سيأتي بيانه.

قال الهيثمي -رحمه الله- في «مجمع الزوائد» (٢/ ٨٠): «رواه الطبراني في الأوسط، وقال: تفرد به حبرة بن لخم الاسكندراني، قلت: ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات». انتهىٰ

قلت: وقد وقف علىٰ ترجمته -أي: حبرة بن لخم- شيخُنا العلامة المحدِّث البحَّاثة الجليل محمد عمرو عبد اللطيف، فقد قال حفظه الله ورعاه: «هو حبرة (علىٰ زنة: عنبة) بن لخم، ذكره الدارقطني في «المؤتلف» (ص٣٨٨) وذكر هذا الحديث من روايته عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي هريرة مرفوعًا، وقال: «تابعه الكديمي عن أبي زيد النحوي عن ابن عون فأسنده، ووهما فيه، والصواب مرسل، ليس فيه أبو هريرة» ثم رواه من طريق هشيم عن ابن عون مرسلاً به. وقال: «وكذلك رواه عبد الوهاب الخفاف وغيره، عن ابن عون، عن محمد مرسلاً». انتهىٰ

وترجم له أيضًا ابن ماكولا في «الإكمال» (٢/ ٣٠) فقال: «وأما حبرة... فهو حبرة بن لخم بن المهاجر الإسكندراني أبو حميد روىٰ عن ابن وهب، روىٰ عنه علي بن سعيد بن بشير الرازي وهو ثقة». انتهىٰ

قلت (أي: الشيخ محمد عمرو): ولم أر أحدًا سبقه إلَىٰ هذا التوثيق، والظاهر: أنه لابن يونس -رحمه الله- كما هي عادة ابن ماكولا وغيره في المصريين، والله أعلم.

وهو أيضًا في «المؤتلف» للحافظ عبد الغني الأزدي (ص٢٥) وغيره باختصار ترجمته». انتهىٰ

قلت: فتبين بذلك ضعف الرواية الموصولة، وأن الصحيح في رواية ابن عون عن ابن سيرين لهذا الحديث الإرسال وليس الوصل كما قال الحافظ الدارقطني -رحمه الله-.

هذا، وقد أخرج هذه الرواية على الصواب كلٌّ من:

١) الإمام محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٣٧) من طريق: عيسىٰ

ابن يونس، عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين مرسلاً.
٢) الإمام ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦٣٢٢- ط. الرشد) من طريق: هشيم، عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين مرسلاً.
٣) الإمام البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٣٣٥٤) من طريق: يونس بن بكير، عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين مرسلاً.
قال البيهقي -رحمه الله-: «ورُوي ذلك عن أبي زيد سعيد بن أوس، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة موصولاً، والصحيح هو المرسل» ثم أورده موصولاً فقال: أخبرنا أبو سهل أحمد بن محمد بن إبراهيم المهراني وأبو نصر بن قتادة قالا: حدثنا أبو علي حامد بن الرفاء الهروي قال: حدثنا محمد بن يونس قال: حدثنا سعيد أبو زيد الأنصاري فذكره...
وقد تعقبه ابن التركماني قائلاً: «ابن أوس -وهو سعيد أبو زيد الأنصاري- ثقة، وقد زاد الرفع، كيف وقد شهد له رواية ابن علية لهذا الحديث موصولاً عن أيوب عن ابن سيرين، عن أبي هريرة».
قلت: ولكن السند إلىٰ أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري لا يصح، إذ الرواي عنه هو محمد بن يونس الكديمي وهو كذاب لا يُحتج به، ولذلك قال البيهقي -رحمه الله-: «ورُوي ذلك عن أبي زيد سعيد بن أوس عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي هريرة موصولاً» بصيغة التمريض إشارة إلىٰ ضعفه وعدم ثبوته عن سعيد بن أوس.
قلت: ولو صح السند إلىٰ سعيد بن أوس، فقد خالفه الجماعة مثل عيسىٰ بن يونس، وهشيم، ويونس بن بكير، وغيرهم، وكلهم رووه مرسلاً!!.
وأما رواية إسماعيل بن علية التي أشار إليها ابن التركماني -رحمه الله-:
فقد أخرجها الحاكم في «مستدركه» (٢/ ٣٩٣) من طريق أبي سعيد أحمد بن يعقوب الثقفي عن أبي شعيب الحراني قال: حدثني أبي، قال: حدثنا إسماعيل بن علية عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعًا به.
قال الحاكم -رحمه الله-: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين لولا خلاف فيه علىٰ محمد، فقد قيل عنه مرسلاً، ولم يخرجاه». انتهىٰ
وقد تعقبه الذهبي -رحمه الله- في «التلخيص» قائلاً: «الصحيح مرسل».
قال العلامة الألباني -رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٢/ ٧٣): «وقد تبين لي أخيرًا أن هذا القول هو الصواب، ذلك لأن أبا شعيب الحراني -واسمه عبد الله بن الحسن

وخرَّج ابنُ ماجة من حديث أمِّ سلمة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قالت: «كانَ الناسُ في عهد النبي ﷺ إذا قام أحدهم يُصلِّي لَم يَعْدُ بصره موضع قدميه فتوفي النبي ﷺ، فكان الناسُ إذا قام أحدهم إلى الصلاة لَم يعْدُ بصرهُ موضعَ جبهته فتوفي أبو بكر، فكان عمر -رضي الله عنه- فكان الناسُ إذا قام أحدهم

=

ابن أحمد- وإن وثقه الدارقطني وغيره، فقد قال فيه ابن حبان: «يخطئ ويهم» كما في «لسان الميزان».

قلت (أي: الألباني): فمثله لا يحتمل تفرده ومخالفته للجماعة الذين رووا عن أيوب مرسلاً». انتهىٰ

قلت: فالصواب في رواية إسماعيل بن علية الإرسال أيضًا، ولا يصح فيها الوصل.

* وقد أخرجها على الصواب كلٌّ من:

١) الإمام ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣) من طريق: يعقوب بن إبراهيم عن إسماعيل بن علية، عن أيوب، عن ابن سيرين مرسلاً.

٢) الإمام البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٣٣٥٦) من طريق: سعيد بن منصور، عن إسماعيل بن إبراهيم وهو ابن علية، عن أيوب، عن ابن سيرين مرسلاً.

قال البيهقي -رحمه الله-: «هذا هو المحفوظ مرسل، وقد رُوي عن إسماعيل بن إبراهيم وهو ابن علية موصولاً».

قلت: ثم ساقه من طريق الحاكم السابق، وقد سبق بيان أن فيه روايًا وهو أبو شعيب الحراني يخطئ ويهم ولا يحتمل مثل هذا التفرد، وقد أخطأ في وصل الحديث، والصواب فيه الإرسال، ولذلك قال البيهقي عقب هذه الرواية: «ورواه حماد بن زيد عن أيوب مرسلاً، وهذا هو المحفوظ». انتهىٰ

قلت: ورواه كذلك معمر عن أيوب عن ابن سيرين مرسلاً أيضًا كما عند عبد الرزاق الصنعاني في «المصنف» (٣٢٦٢).

قلت: وبذلك تعلم صحة قول الأئمة الحفاظ الأثبات: الدارقطني، والبيهقي، والذهبي، وابن رجب، وغيرهم، أن الصواب في حديث ابن سيرين هذا الإرسال، وليس الوصل، والمرسل من أقسام الضعيف كما هو معلوم، فالحديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ، والله الهادي إلى الصواب.

يُصلي لَم يعد بصر أحدهم موضع القبلة، وكان عثمان بن عفان -رضي الله عنه- فكانت الفتنة فتلفت الناس يَمينًا وشمالاً»(١).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (١٦٣٤)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٤٥٦) مختصرًا كلاهما من طريق إبراهيم بن المنذر الحزامي، عن محمد بن إبراهيم بن المطلب بن السائب بن أبي وداعة السهمي، حدثني موسىٰ بن عبد الله بن أبي أمية المخزومي، حدثني مصعب بن عبد الله، عن أم سلمة بنت أبي أمية زوج النبي ﷺ أنها قالت: ... فذكره.

قلت: وهذا حديث ضعيف منكر؛ فيه أكثر من علة:

الأولى: موسىٰ بن عبد الله بن أبي أمية، قال فيه الحافظ في «التقريب»: مجهول.

وأشار الذهبي إلىٰ جهالته بقوله: «تفرد عنه محمد بن إبراهيم بن المطلب».

الثانية: محمد بن إبراهيم بن المطلب -خال إبراهيم بن المنذر الحزامي- فيه جهالة أيضًا، وقد تفرد ابن حبان بتوثيقه، وابن حبان معروف بتوثيق المجاهيل والضعفاء، وهذا منهم.

ولذلك قال فيه الحافظ في «التقريب»: «مقبول». أي إذا تُوبع، وإلا فهو لين الحديث كما هو معروف من اصطلاحه هذا، وقد تفرد بهذا الحديث ولم يتابعه أحد عليه.

الثالثة: مصعب بن عبد الله وهو ابن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي: لم أر فيه جرحًا ولا تعديلاً، ولم أقف له علىٰ توثيق معتبر، اللهم إلا أن ابن حبان ذكره في كتابه الثقات، وابن حبان معروف بتساهله جدًّا في التوثيق!.

الرابعة: وهي أن الحديث منكر متنًا أيضًا، كما نص علىٰ ذلك العلامة الألباني -رحمه الله- في «السلسلة الضعيفة» (١٠٤٠)، فقد قال -رحمه الله-: «وهو منكر أيضًا متنًا عندي، وبيان ذلك من وجهين:

الأول: أنه يدل علىٰ أن السنة أن ينظر القائم في صلاته إلىٰ موضع قدميه، وهذا خلاف المعروف الثابت عنه ﷺ أنه كان إذا صلىٰ طأطأ رأسه، ورمىٰ ببصره نحو الأرض. وفي حديث آخر أنه ﷺ لَمَّا دخل الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتىٰ خرج منها.

والآخر: أنه دلَّ علىٰ أن الصحابة بعد وفاته ﷺ قد خالفوا سنته ﷺ إلىٰ شيء آخر، وهذا مستبعد جدًّا عن الصحابة إن لم يكن مستحيلاً عادة، والله أعلم» انتهىٰ كلامه -رحمه الله-.

=

وفي «صحيح البخاري» عن عائشة -رضي الله عنها-: سألتُ النبيَّ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاسٌ يَختلسه الشيطان من صلاة العبد»[1].

وخرَّج الإمام أحمد -رَحِمهُ الله تعالَىٰ-، وأبو داود، والنسائي، من حديث أبي ذر -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ قال: «لا يزالُ الله مقبلاً على العبدِ في صلاته ما لمْ يَلتفت، فإذا التفتَ انصرف عنه»[2].

=

قلت: وهو كلامٌ متينٌ من علاَّمة نحرير يدل علىٰ تمكنه وتبحره في علوم الحديث والسنة روايةً ودرايةً، وليس كما يقول أعداؤه أنه ليس من أهل الفهم والفقه والدراية!، فهو كلام مردود علىٰ أصحابه، والشيخ ليس بحاجة إلىٰ دفاع أمثالي عنه، فهو علمٌ شامخٌ وجبل راسخ في علم الحديث، وبه أحيا الله ما اندرس من هذا العلم، فما من طالب علم في هذا الزمان إلا وللعلاَّمة الألباني -رحمه الله- مِنَّة وفضل عليه.

ويعلم الله أننا نُحبُّه ونُوقِّره ونُجلُّه وإن خالفناه في بعض الأشياء، فمخالفتنا له هي في الحقيقة موافقة، وذلك لأن دعوته -رحمه الله- كانت قائمة علىٰ أسس عظيمة من أهمها نبذ التقليد الأعمىٰ، فنحن بذلك وافقناه في أصل دعوته، وأساس منهجه الذي نذر حياته من أجله، فرحمة الله عليه وعلىٰ أمثاله من العلماء الربانين والأئمة المصلحين، ونسأل الله أن يجمعنا بهم في جنات النعيم، اللهم آمين.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧١٨، ٣١١٧) من حديث عائشة -رضي الله عنها- مرفوعًا به.

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (٩٠٩)، والنسائي في «المجتبىٰ» (٣/ ٨)، وفي «السنن الكبرىٰ» (١١١٨)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٧٢)، والدارمي في «سننه» (١٤٢٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٨٢)، والحاكم في «مستدركه» (٨٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢/ ٢٨١، ٢٨٢)، وابن المبارك في «الزهد» (١١٨٦)، وفي «المسند» (٥٥) كلهم من طريق يونس عن ابن شهاب الزهري قال: سمعت أبا الأحوص يحدثنا في مجلس سعيد بن المسيب عن أبي ذر الغفاري -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قال الحاكم -رحمه الله-: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو الأحوص هذا مولىٰ بني الليث تابعي من أهل المدينة وثقه الزهري وروىٰ عنه».

=

وخرَّج الإمام أحْمَد، والترمذي من حديث الْحَارث الأشعري، عن النبي ﷺ: «أنَّ الله أمرَ يَحيَى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بِهنَّ ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بِهن»، فذكر منها: «وآمركم بالصلاة فإنَّ الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لَمْ يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا»[1]. وفي المعنى أحاديث أُخَر متعددة.

=

قلت: وليس كما قال -رحمه الله-!، بل إسناده ضعيف؛ وعلته أبو الأحوص هذا، وهو مولى بني ليث، ويُقال مولى غفار إمام مسجد بني ليث، فإنه مجهول. وقد قال فيه يحيى بن معين: «أبو الأحوص الذي يروي عنه الزهري ليس بشيء».

وقال النسائي: «أبو الأحوص لم نقف على اسمه ولا نعرفه، ولا نعلم أن أحدًا روى عنه غير ابن شهاب الزهري».

هذا؛ وقد ضعَّف الحديث أيضًا شيخ مشايخنا العلامة الألباني -رحمه الله- في «ضعيف الجامع» (٦٣٤٥)، وفي «المشكاة» (٩٩٥)، وفي «تمام المنة» (ص٣٠٩)، وفي غيرها من كتبه.

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٨٦٣، ٢٨٦٤)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٠، ٢٠٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٨٣، ٩٣٠، ١٨٩٥) وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٣٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٥٧)، والحاكم في «مستدركه» (٤٠٤، ٨٦٣، ١٥٣٤)، وأبو داود الطيالسي في «مسنده» (١١٦١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٩)، وفي «مسند الشاميين» (٢٨٧٠)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٢٤ - ١٢٧)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٣٥٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٥٧١)، وفي «المفاريد» (٨٣)، وأبو الشيخ في «الأمثال في الحديث» (٣٦٣)، وابن عساكر في «الأربعون في الجهاد» (٦)، وغيرهم من طرق: عن زيد بن سلام، عن جده أبي سلام ممطور، عن الحارث الأشعري -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قلت: وهو حديث صحيح، رجال إسناده كلهم ثقات.

وقد صححه العلامة الألباني -رحمه الله- في «صحيح الجامع» (١٧٢٤).

وقال عطاء: سَمعتُ أبا هُريرة يقول: «إذا صَلَّىٰ أحدكم فلا يلتفت فإنه يُناجي ربَّه، إن ربَّه أمامه وإنَّه يُناجيه فلا يلتفت»(١).

قال عطاء -رَحمهُ الله تعالَىٰ-: وبَلَغنا أن الربَّ -عَزَّ وَجَلَّ- يقول: «يا ابن آدم إلَىٰ مَن تلتفت، أنا خيرٌ لك مِمَّن تلتفت إليه»(٢).

وخرَّجه البزَّار وغيره مرفوعًا، والموقوف أصحُّ(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ٣٩٥/ ٤٥٣٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ٢٥٧/ ٣٢٧٠)، وعنه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٧٠)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤٢) من طريق ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة -رضي الله عنه- به.

لكن رواية محمد بن نصر المروزي لفظها مختلف، وهو كالآتي: «إذا صليت فإنك تناجي ربك، وربك أمامك فلا تبزقن أمامك ولا عن يمينك».

قلت: وإسناد هذا الأثر صحيح، وقد صرَّح ابن جريج بالسماع من عطاء في رواية محمد بن نصر المروزي، حيث قال في إسناده: ابن جريج قال: قلت لعطاء... الخ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ٢٥٧/ ٣٢٧٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ٣٩٥، ٤٥٣٨) وإسناده صحيح إذ هو بنفس الإسناد السابق: ابن جريج عن عطاء، لكنه لم يعزه إلىٰ أحد، وإنما قال: «بلغنا...».

(٣) قلت: أما المرفوع: فقد أخرجه البزار في مسنده (١/ ٥٥٢، ٥٥٣- كشف الأستار) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قام الرجل في صلاته أقبل الله عليه بوجهه فإذا التفت قال: يا ابن آدم إلى من تلتفت؟ إلى من هو خير لك مني؟ أقبل إليَّ. فإذا التفت الثانية. قال مثل ذلك، فإذا التفت الثالثة صرف الله -تبارك وتعالى- وجهه عنه».

قال البزار: «لا نعلم رواه إلا جابر ولا عنه إلا ابن المنكدر ولا عنه إلا الفضل، والفضل خال المعتمر بن سليمان بصري قصاص وأحسب أنه كان يذهب إلىٰ القدر ولا نكتب عنه إلا ما لم نجده عند غيره». انتهىٰ.

وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٨٠): «رواه البزار، وفيه الفضل بن عيسىٰ الرقاشي، وقد أجمعوا علىٰ ضعفه». انتهىٰ

وقال الحافظ في «التقريب»: «منكر الحديث».

قلت: وكان قدريًّا خبيثًا، وقد ضعفه الإمام أحمد، وابن معين، وأبو زرعة، وأبو

وقـال أبو عمران الجـوني -رَحمهُ الله تعـالَىٰ-: «أوحَىٰ الله -عَزَّ وَجَلَّ- إلى موسىٰ -عليه السلام-: يا موسىٰ إذا قمتَ بين يديَّ فقم مقام العبد الحقير الذليل، وذم نفسك فهي أولَىٰ بالذمِّ، وناجِني بقلب وَجِل[1]، ولسانٍ صادق»[2].

=

حاتم، وأبو داود، والنسائي، وابن عدي، والساجي، وضعفه غيرهم من الأئمة.

وأخرج البزار أيضًا في «مسنده» (١/ ٥٥٣- كشف الأستار) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة -أحسبه قال- قائمًا هو بين يدي الرحمن تبارك وتعالى. فإذا التفت يقول تبارك وتعالى: إلى من تلفَّتُ؟ إلى خير مني؟ أقبل يا ابن آدم إليَّ فأنا خير ممن تلفَّتُ إليه».

قال البزار: «رواه طلحة بن عمرو عن عطاء عن أبي هريرة موقوفًا». انتهىٰ

قلت: لا يصح مرفوعًا ولا موقوفًا علىٰ أبي هريرة.

فأما المرفوع: ففي إسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي، قال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٨٠): «رواه البزار، وفيه إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو ضعيف». انتهىٰ

قلت: بل هو متروك الحديث، وقد ضعَّفه جدًّا جمع كبير من الأئمة، منهم الإمام أحمد، وابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والبخاري، والنسائي، وابن المديني، والنسائي، والبرقي، والدارقطني، وابن حبان، وغيرهم من الأئمة.

وأما الموقوف: ففي إسناده طلحة بن عمرو بن عثمان الحضرمي المكي؛ وقد ضعفه الإمام أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن المديني، وأبو زرعة، والدارقطني، وضعفه غيرهم من الأئمة.

(١) الوجل: هو الخوف.

(٢) وهذا الأثر قد وقفت عليه من قول أبي الجلد برواية أبي عمران الجوني عنه، ووقفت عليه أيضًا من قول أبي عمران الجوني نفسه، وكلاهما لا يصح.

أولاً: من قول أبي الجلد برواية أبي عمران الجوني عنه:

أخرجه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» (ص٦٧)، وعنه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٥٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٤٨) من طريق هاشم بن القاسم عن صالح المُرِّي، عن أبي عمران الجوني، عن أبي الجلد قال: «أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ -عليه السلام- إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك، وكن عند ذكري خاشعًا مطمئنًا، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يدي فقم =

[الركوع في الصلاة من مظاهر الخشوع فيها]

ومن ذلك الركوعُ وهو ذلٌّ بظاهر الجسد.

ولهـذا كانت العـربُ تأنفُ[1] منـه ولا تَفْعَله حتى بايع بعضهم النبي ﷺ على أن لا يَخر إلاَّ قائمًا[2] يعني أن يسجد من غير ركوع.

=

مقام العبد الحقير الذليل، وذم نفسك فهي أولى بالذم، وناجني حيث تناجيني بقلب وجل، ولسان صادق».

قلت: وإسناده ضعيف جدًّا؛ فيه صالح، وهو ابن بشير بن وادع الْمُرِّي، وهو ضعيف في الحـديث مع أنه من العباد الصالحين. قال فيه البخاري: منكـر الحـديث. وقال النسائي: متروك الحـديث. وقـد ضعَّفه أيضًا: ابن معين، وابن المـديني، والفلاس، والجوزجاني، وأبو داود، وابن حبان، وغيرهم.

وانظر «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر -رحمه الله- (٤/ ٣٨٢/ ٦٤١).

ثانيًا: من قول أبي عمران الجوني نفسه:

أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٤٧) من رواية داود بن رشيد قال: بلغني عن أبي عمران الجوني أنه قال: «أوحى الله ... فذكره».

قلت: وهو إسناد ضعيف منقطع كما ترى.

(١) الأَنَفَـةُ: هي الاستنكاف والاستكـبار والاستعلاء. وانظر «مخـتار الصحـاح»، مادة (أنف).

(٢) قلت: وهذا يُروى عن حكيم بن حزام -رضي الله عنه-، يقول: «بايعتُ رسول الله ﷺ أن لا أخرَّ إلاَّ قائمًا».

وهذا الحديث أخرجه النسائي في «المجتبى» (٢/ ٢٠٥/ ١٠٨٤)، وفي «السنن الكبرى» (٦٧١)، وأحمـد فِي «مسنده» (٣/ ٤٠٢)، وأبو داود الطيالسي في «مسنده» (١٣٦٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ١٩٥)، وغيرهم من طريق: شعبة، عن أبي بشر قال: سمعت يوسف وهو ابن ماهك يُحدِّث عن حكيم بن حزام قال: ... فذكره.

وقد أورد الحديث العلامة الألباني -رحمه الله- في «صحيح سنن النسائي» (١٠٨٣)، وقال عقبه: «صحيح الإسناد».

قلت: وقد جانب الصواب -رحمه الله- في حكمه على هذا الإسناد، وذلك لأن هذا الإسناد ضعيف منقطع؛ إذ أنَّ يوسف بن ماهك لم يسمع من حكيم بن حزام -رضي =

كذلك فسره الإمام أحمد -رَحمهُ الله تعالى- والمحققون من العلماء[1].

=

الله عنه-، ويُشير إلىٰ ذلك قول أبي بشر في الإسناد: «سمعتُ يوسف وهو ابن ماهك يُحدِّث عن حكيم بن حزام»، فهو لم يسمع منه مباشرةً.

يقول الحافظ العراقي -رحمه الله- في كتابه «تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل» (ص٣٥٥): «يوسف بن ماهك، عن حكيم بن حزام: قال الإمام أحمد: مرسل، وأخرج ابن حبان في صحيحه حديثه عنه، والأصح ما قال أحمد بينهما عبد الله بن عصمة». انتهىٰ

وقد أشار الحافظ العراقي إلىٰ علة هذا الحديث أيضًا في «تخريجه لأحاديث الإحياء» فقال: «...وفيه إرسال خفي». انتهىٰ

ويقول الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه علىٰ «مسند الإمام أحمد» معلّقًا علىٰ هذا الحديث: «وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه»، وقد بيَّن سبب هذا الانقطاع في حكمه علىٰ الحديث الذي قبله فقال: «وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، يوسف بن ماهك لم يسمع من حكيم بن حزام» انتهىٰ.

قلت: فالحديث ضعيف ولا يصح إسناده، والله تعالىٰ أعلم.

(١) قلت: وقد قيل في تفسير هذا الحديث أقوال أخرىٰ كثيرة، منها:

القول الأول: لا أسقط إلىٰ السجود إلا قائمًا، أي أرجع من الركوع إلىٰ القيام ثم أخر منه إلىٰ السجود، ولا أخر من الركوع إليه.

القول الثاني: لا أموت إلا متمسكًا بالإسلام ثابتًا عليه، يُقال: قام فلان علىٰ الشيء إذا ثبت عليه، وتمسك به.

القول الثالث: لا أقع في شيء من تجارتي وأموري إلا قمت به منتصبًا له.

القول الرابع: لا أغبن ولا أُغبن.

وانظر هذه الأقوال وغيرها في هذه المراجع الآتي ذكرها:

١] «حاشية السيوطي والسندي علىٰ سنن النسائي» (٢/ ٢٠٢) و (٢/ ٢٠٥).

٢] «لسان العرب» لابن منظور (٤/ ٢٣٤)، و(١٢/ ٤٩٦).

٣] «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١٤٨٧).

٤] «تاج العروس» للزبيدي (٢٧٥٣، ٧٨٧٠).

٥] «النهاية في غريب الأثر» لابن الأثير «٢/ ٥٩)، و(٤/ ٢٠٧).

٦] «غريب الحديث» لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢/ ١٣٠، ١٣٢).

=

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]. وتَمام الخضوع في الركوع: أن يَخضع القلبُ لله ويذل له فيتم بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله -عَزَّ وَجَلَّ-. ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «خشع لك سَمْعي وبصري ومُخِّي وعظامي وما استقلَّ به قدمي»(١).

إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه، ومن أعظمها القلبُ الذي هُو مَلِكُ الأعضاءِ والْجَوارح، فإذا خَشَع خشعت الْجَوارح والأعضاء كلها تبعًا لخشوعه.

[السجود من مظاهر الخضوع والخشوع في الصلاة]

ومن ذلك السجود وهو أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه -عَزَّ وَجَلَّ- حيثُ جعل العبدُ أشرفَ ما له من الأعضاء وأعزَّها عليه وأعلاها حقيقةً أوضعَ ما يُمكنه، فيضعه في التراب مُتَعَفِّرًا(٢) ويتبعُ ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله -عَزَّ وَجَلَّ-.

=

٧] «غريب الحديث» لابن الجوزي (١/ ٢٧٢).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- دون قوله: «وما استقل به قدمي»، وفيه زيادة: «وعصبي».
وأخرجه بهذه الزيادة «وما استقل به قدمي»: أحمد في «مسنده» (١/ ١١٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٦٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٠١)، والدارقطني في «سننه» (١/ ٣٤٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢/ ٣٢، ٨٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٢٩٦)، والشافعي في «مسنده» (١٥٤) من حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أيضًا.
قلت: وهي رواية صحيحة صحَّحها جمعٌ من أهل العلم، ومنهم العلامة الألباني -رحمه الله- في «صفة الصلاة» (ص١٣٣).

(٢) العَفَرُ: هو التراب، يُقال: «عَفَّرَ وجهه»؛ أي: مَرَّغَهُ في التراب. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (عفر).

ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يُقَرِّبه الله -عَزَّ وَجَلَّ- إليه فإن: «أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجد»[١]، كما صحَّ عن النبيِّ ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩].

والسُّجود أيضًا مِمَّا كان يأنف[٢] منه المشركون المستكبرون عَن عبادة الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وكان بعضهم يقول: أكره أن أسجد فتعلوني استي[٣] وكان بعضهم يأخذ كفًّا من حصى فيرفعه إلى جبهته ويكتفي بذلك عن السُّجود.

وإبليس إنَّما طردهُ الله لَمَّا استكبر عن السجود لِمن أمره الله بالسجود له.

ولهذا يبكي إذا سَجد المؤمن ويقول: «أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود ففعل فله الْجَنَّة، وأمرتُ بالسُّجود فعصيت فلي النار»[٤].

ومن تَمام خشوع العبد لله -عَزَّ وَجَلَّ- وتواضعه له في ركوعه وسجوده أنه إذا ذلَّ لربِّه بالركوع والسجود وصف ربَّه حينئذٍ بصفات العز والكبرياء والعَظَمة والعلو.

فكأنه يقول: الذلُّ والتواضع وصفي، والعلو والعظمةُ والكبرياء وَصْفُك، فلهذا شرع للعبد في ركوعه أن يقول: «سبْحَان ربِّي العظيم»، وفي سجوده: «سُبْحان ربي الأعلى»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤٨٢) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.
(٢) الأَنَفَة: هي الاستنكاف والاستكبار والاستعلاء. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (أنف).
(٣) الاسْتُ: هي مؤخرة الإنسان وعجزه ودبره.
(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨١) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.
(٥) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٧٧٢) من حديث حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه-.

وكان النبيُّ ﷺ أحيانًا يقول في سجوده: «سُبْحان ذي الملكوت والْجَبروت والكبرياء والْعَظَمة»(١).

ورُوي عنه ﷺ أنه قال ليلةً في سجوده: «أقول كما قال أخي داود -عليه السلام-: أُعَفِّر وجهي في التراب لسيدي، وحُقَّ لسيدي أن تُعَفَّر الوجوه لوجهه»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٨٧٣)، والنسائي في «المجتبىٰ» (٢/ ١٩١، ٢٢٣)، وفي «السنن الكبرىٰ» (٧١٨)، والترمذي في «الشمائل المحمدية» (٢٩٨)، وأحمد في «مسنده» (٦/ ٢٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٦١)، وفي «مسند الشاميين» (٢٠٠٩)، وفي «الدعاء» (٥٤٤)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢/ ٣١٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٥/ ٢٤٤) وغيرهم من طريق: معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس الكندي، عن عاصم بن حميد، عن عوف بن مالك الأشجعي -رضي الله عنه- مرفوعًا به.
وقد صحَّح إسناده العلامة الألباني -رحمه الله- في عددٍ من كتبه: مثل «صحيح أبي داود»، و«صحيح سنن النسائي»، و«مختصر الشمائل»، و«مشكاة المصابيح»، و«صفة الصلاة».
قلت: والذي أراه -والله أعلم- أن إسناده حسن أو جيد لا بأس به، وذلك لحال معاوية بن صالح، فهو صدوق له أوهام كما قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٨٣٨)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٩١٧)، والطبراني في «الدعاء» (٦٠٦)، ومن طريقه ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (ص١٢٠، ١٢١) كلهم من طريق: عمرو بن هاشم البيروتي، عن سليمان بن أبي كريمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة قالت: كانت ليلة النصف من شعبان ليلتي وكان رسول الله ﷺ عندي فلما كان في جوف الليل فقدته فأخذني ما يأخذ النساء من الغيرة فتلفعت بمرطي أما والله ما كان من خز ولا قز ولا حرير ولا ديباج ولا قطن ولا كتان. قيل لها: مم كان يا أم المؤمنين؟ قالت: كان سداه شعرًا ولحمته من أوبار الإبل. قالت: فطلبته في حجر نسائه فانصرفت إلىٰ حجرتي فإذا أنا به كالثوب الساقط وهو يقول في سجوده: سجد لك خيالي وسوادي وآمن بك فؤادي فهذه يدي وما جنيت بها علىٰ نفسي يا عظيم يرجىٰ لكل عظيم، يا عظيم اغفر الذنب العظيم، سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره. ثم رفع رأسه ثم

[لا يُقبل العمل حتى يشهد القلب مع البدن]

قال الْحَسن -رَحمهُ الله تعالَىٰ-:

«إِذَا قُمتَ إِلَىٰ الصَّلاة فقُم قانتًا كما أمرك الله وإيَّاك والسهو والالتفات، أن ينظر الله إليك وتنظر إلى غيره، وتسأل الله الْجنَّة وتعوذ به من النار وقلبُك ساهٍ لا تدري ما تقول بلسانك».

خرَّجه مُحمد بن نصر الْمَروزي -رَحمهُ الله تعالَىٰ-[1].

وروىٰ بإسناده عن عثمان بن أبي دَهْرَش قال: بَلَغَنِي أن رسول الله ﷺ صَلَّىٰ صلاةً جهر فيها بالقراءة فلمَّا فرغ قال: «هل أسْقَطتُ من هذه السورة شيئًا؟».

قالوا: لا ندري، فقال أبيُّ بن كعب: نعم آية كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوامٍ يُتْلَى عليهم كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- فلا يدرون ما يُتْلَى منه مِمَّا تُرِكَ، هكذا

=

عاد ساجدًا فقال: أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ بك منك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك، أقول كما قال أخي داود أعفر وجهي في التراب لسيدي وحق لسيدي أن يسجد له. ثم رفع رأسه فقال: اللهم ارزقني قلبًا نقيًا من الشر لا جافيًا ولا شقيًّا... الحديث.

قلت: وهو حديث ضعيف منكر من مناكير سليمان بن أبي كريمة.

قال ابن الجوزي -رحمه الله- في «العلل المتناهية» (٩١٧): «هذا حديث لا يصح، قال ابن عدي: أحاديث سليمان بن أبي كريمة مناكير».

وقال ابن حجر -رحمه الله- في «الأمالي المطلقة» (ص١٢١): «هذا حديث غريب، ورجاله موثوقون إلا سليمان بن أبي كريمة ففيه مقال، وقد رواه بطوله النضر بن كثير، عن يحيىٰ بن سعيد الأنصاري عن عروة.

أخرجه البيهقي في فضائل الأوقات من طريقه، والنضر بن كثير أيضًا فيه مقال، لكنه أصلح حالاً من سليمان...». انتهىٰ

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤٠، ١٤٨) بإسناد صحيح.

خرجت عظمة الله من قلوب بني إسرائيل، شهدت أبدانُهم وغابت قلوبهم ولا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد بقلبه مع بدنه»(١). والآثار في هذا المعنى كثيرة جدًا.

ومرَّ عصام بن يوسف -رَحمهُ الله تعالَى- بِحاتم الأصم وهو يتكلم في مَجلسه فقال: يا حاتم تُحسن تُصلي؟ قال: نعم! قال: كيف تُصلي؟ قال حاتِم: «أقوم بالأمر، وأمْشي بالْخَشية، وأدخل بالنية، وأكبِّر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام، وأسلِّم بالسبيل والسُّنَّة، أسلمها بالإخلاص إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأرجع على نفسي بالخوف، أخاف أن لا يُقبل مني، وأحفظه بالجهد إلى الموت»، قال: «تكلَّم فأنتَ تُحسن تُصلي»(٢).

---

(١) خرَّجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥٧) من طريق: يحيىٰ ابن يحيىٰ، عن يحيىٰ بن سليم وهو الطائفي، عن عثمان بن أبي دهرش به.
وخرَّجه أيضًا -أي: محمد بن نصر- من طريق صدقة بن الفضل عن ابن عيينة عن عثمان بن أبي دهرش عن رجل من آل الحكم بن أبي العاص مرسلاً به.
قلت: ورواية ابن عيينة أصح من رواية يحيىٰ بن سليم الطائفي؛ لأن ابن عيينة ثقة ثبت، أما الطائفي فمختلفٌ فيه، وعلىٰ كل حال فالإسناد ضعيف، وذلك لسببين:
الأول: عثمان بن أبي دهرش لم يوثقه أحد من الأئمة المعتبرين، اللهم إلا ابن حبان فقد ذكره في كتاب «الثقات»، وابن حبان كما هو معلوم متساهل جدًّا في التوثيق، فهو يُوثق الضعفاء والمجاهيل.
الثاني: شيخه في الإسناد -وهو: الرجل الذي من آل الحكم بن أبي العاص- مجهول مُبهم لم يُسم.

(٢) خرَّجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٧٤، ٧٥) قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم، قال: حدثني علوان بن الحسين الربعي، قال: حدثنا رباح بن الهروي، قال: مر عصام بن يوسف بحاتم الأصم... فذكره.
قال شيخنا العلامة المحدِّث الجليل محمد عمرو عبد اللطيف -حفظه الله-: «وعلوان وشيخه لم أهتد إليهما. نعم ترجم الخطيب -أي: في «تاريخ بغداد»- (١٢/ ٣١٨، =

فصل

[في بيان أنَّ الدعاء من العبادات التي يظهر فيها الذل والخضوع]

ومن أنواع العبادات التي يظهر فيها الذل والخضوع لله -عَزَّ وَجَلَّ-: الدُّعاء، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

[من مظاهر الذل في الدعاء رفع اليدين]

فمِمَّا يظهر فيه الذلُّ من الدعاء رفعُ اليدين.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه رفع يديه في الدعاء في مواطن كثيرة[1]

=

٣١٩) لعلوان بن الحسين أبي اليسير المالكي -ختن عبد الله بن أحمد بن حنبل-، وسكت عليه، ويبعد عندي أن يكون الذي في الإسناد، فإنه لم ينسبه ربعيًّا، ولأنه أرَّخ وفاته سنة عشرين وثلاثمائة، أي قبل وفاة ابن أبي حاتم بسبع سنين، فيبعد أن يكون شيخه، والله أعلم، ولم أجد الأثر في مصدر سوىٰ الحلية». انتهىٰ

قلت: وقد بحثت أنا أيضًا عن علوان بن الحسين الربعي، ورباح بن الهروي فلم أهتد إليهما، ولم أقف علىٰ ترجمتهما بعد طول بحث وتنقيب، فالله أعلم بالصواب.

(١) قلتُ: وعدَّه بعض العلماء كالسيوطي -رحمه الله- من المتواتر المعنوي، فقال: «ومنه ما تواتر معناه كأحاديث رفع اليدين في الدعاء، فقد ورد عنه ﷺ نحو مائة حديث فيه رفع يديه في الدعاء، وقد جمعتها في جزء لكنها قضايا مُختلفة...» إلىٰ آخر ما قال -رحمه الله-. وانظر «تدريب الراوي» (٢/ ١٨٠).

وأعظمها في الاستسقاء فإنه كان يرفع فيه يديه حتىٰ يُرىٰ بياض إبطيه[1]، وكذلك كان يَجتهد في الرفع عشية عرفة بعرفة.

وخـرَّج الطبراني -رَحمهُ الله تعالَىٰ- من حـديث ابن عـباس -رضي الله عنهما- قـال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يدعو بعرفة ويداه إلَىٰ صـدره كاستطعام المسكين»[2].

وقد كان بعضُ الخائفينَ يَجلس بالليل ساكنًا مُطْرقًا[3] برأسه، ويَمد يديه كحالِ السائل، وهذا من أبلغ صفات الذلّ وإظهار المسكنة والافتقار.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٩٨٤)، ومسلم في «صحيحه» (٨٩٥) من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٨٩٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٥/ ١١٧/ ٩٢٥٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢١٣، ٢١٤)، والبيهقي في «فضائل الأوقات» (١٩٧)، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (٢/ ٣٥٠) كلهم من طريق حسين بن عبد الله الهاشمي عن عكرمة عن عبد الله بن عباس مرفوعًا به.
قلت: وهذا إسناد ضعيف جدًّا، فيه حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس الهاشمي، وهو ضعيف واهٍ رُمي بالزندقة.
وفي «التاريخ الكبير» للإمام البخاري (٢/ ٣٨٨) يقول: «حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس الهاشمي ... قال علي (أي: ابن المديني): تركت حديثه». انتهىٰ
وفي نفس المصدر (٥/ ٢٢٧): «كان يُتهم بالزندقة». انتهىٰ
وفي «الجرح والتعديل» (٣/ ٥٧) ذكر عن الإمام أحمد أنه قال: «له أشياء منكرة».
وقال يحيىٰ بن معين: «ضعيف»، وضعَّفه أيضًا أبو حاتم، وأبو زرعة.
وضعَّف الحديث أيضًا الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٤- ط-الفكر) فقد قال عقب ذكره للحديث: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الحسين بن عبد الله بن عبيد الله وهو ضعيف». انتهىٰ

(٣) أطرق الرجل: أي سكت فلم يتكلم. وأطرق أيضًا: أرخىٰ عينيه ينظر إلىٰ الأرض. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (طرق).

[افتقار القلب وانكساره وحرقته وفاقته من أسباب إجابة الدعاء]

ومن ذلك أيضًا افتقار القلب في الدعاء وانكساره لله -عَزَّ وَجَلَّ- واستشعاره شدة الفاقَة إليه والْحاجة، وعلىٰ قَدر هذه الْحرقة والفَاقة[1] تكون إجابة الدعاء.

وفي «المسند»، والترمذي، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله لا يستجيبُ دُعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»[2].

---

(١) الفاقة: هي الفقر والحاجة. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (فوق).

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٤٧٩)، والحاكم في «مستدركه» (١٨١٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥١٠٩)، وفي «الدعاء» (٦٢)، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (٤/ ٦٢)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٥٥)، و(١٤/ ٢٣٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٤/ ٣١٥) كلهم من طريق صالح الْمُرِّي عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قلت: وإسناده ضعيف جدًّا؛ فيه صالح بن بشير بن وادع الْمُرِّي، وهو ضعيف جدًّا في الحديث مع أنه من العباد الصالحين. قال فيه البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك الحديث.

وقد ضعَّفه أيضًا: ابن معين، وابن المديني، والفلاس، والجوزجاني، وأبو داود، وابن حبان، وغيرهم. وانظر ترجمته في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر -رحمه الله- (٤/ ٣٨٢/ ٦٤١).

وأما قول الحاكم -رحمه الله- عقب إخراجه لهذا الحديث: «هذا حديث مستقيم الإسناد تفرد به صالح الْمُرِّي، وهو أحد زهاد أهل البصرة، ولم يُخرجاه». انتهىٰ

قلت: فهذا من تساهله الشديد جدًّا، إذ كيف يصف إسنادًا كهذا بأنه مستقيم مع وجود صالح الْمُرِّي فيه، وهو متروك الحديث، وقد سبق نقل بعض كلام الأئمة فيه!!.

ولذلك تعقبه كثير من الأئمة منهم:

١] الإمام الذهبي -رحمه الله- فقد قال متعقبًا له: «قلت: صالح متروك».

٢] والإمام المنذري -رحمه الله- فقد قال متعقبًا له أيضًا: «لا شك في زهده، لكن تركه أبو داود والنسائي».

٣] والإمام العراقي -رحمه الله- فقد قال متعقبًا له كذلك: «قلت: لكنه ضعيف في الحديث».

=

هذا، وقد ضعَّف الحديث أيضًا كثير من الأئمة، وهم:

١] الإمام الترمذي -رحمه الله- فقد قال عقب إخراجه: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». انتهىٰ

٢] الإمام ابن حبان فقد أورد هذا الحديث من مناكير صالح المري، وذلك في كتابه «المجروحين» (١/ ٣٦٨).

٣] الحافظ ابن عدي فقد قال عقب روايته هذا الحديث وأحاديث أخرىٰ من رواية صالح المري، عن هشام بن حسان: «وصالح أيضًا قد يقبل بهشام، فيُحدِّث عنه بأحاديث بواطيل، وهذه الأحاديث صالح يرويها عن هشام».

٤] الإمام المنذري، وقد سبق نقل كلامه.

٥] الحافظ الذهبي، وقد سبق نقل كلامه.

٦] الحافظ العراقي، وقد سبق نقل كلامه.

هذا، وللحديث شاهد أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ١٧٧) قال: حدثنا حسن، قال: حدثنا ابن لهيعة، قال: حدثنا بكر بن عمرو عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**».

قال الحافظ الهيثمي -رحمه الله- في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٢- ط، الفكر): «رواه أحمد، وإسناده حسن». انتهىٰ

قلت: بل إسناده ضعيف؛ فيه عبد الله بن لهيعة، وهو من الضعفاء، وبعض العلماء يفصِّل في حاله، فيقبل رواية من روىٰ عنه قبل الاختلاط، ويرد رواية من روىٰ عنه بعد الاختلاط.

وعلى كل حال: فإن سماع الحسن (وهو ابن موسىٰ الأشيب) منه -أي: ابن لهيعة- كان بعد اختلاطه. وفي الإسناد أيضًا: بكر بن عمرو وهو المعافري المصري، وفيه جهالة.

هذا، وقد رأىٰ العلاَّمة الألباني -رحمه الله- أن هذين الحديثين -أي: حديث أبي هريرة، وحديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- يُقوِّي أحدهما الآخر، ويشد من أزره، ولذلك صحَّح الحديث وأورده في «السلسلة الصحيحة» (٥٩٤)، وحسَّنه في «صحيح الجامع» (٢٤٥)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٥٢، ١٦٥٣).

[ومن مظاهر الذل في الدعاء الإلحاح والتضرع فيه]

ومن ذلك إظهارُ الذلّ باللسان في نفس السؤال والدُّعاء والإلْحَاح فيه.

قال الأوزاعي -رَحمهُ الله تعالَىٰ-: «كان يُقال: أفضلُ الدعاء الإلْحاحُ علىٰ الله والتضرع إليه»[1].

=

قلت: وفي هذا نظر كبير، وهو من الأحاديث التي جانب العلاَّمةُ الألبانيُّ -رحمه الله- الصوابَ فيها، وذلك لأن الحديث الأول حديث أبي هريرة سنده ضعيف جدًّا، فيه صالح المري وهو متروك.

وأما الحديث الثاني وهو حديث عبد الله بن عمرو، فإن إسناده علىٰ ضعفه ووهائه؛ لوجود عبد الله بن لهيعة فيه وغيره، فإنه مع ذلك حديث معلول، وقد أخطأ ابن لهيعة في إسناده ووهم فيه، والصحيح أنه من رواية بكر بن عمرو عن صفوان بن سليم معضلاً به، وهذا وغيره مما يدل علىٰ ضعف ابن لهيعة وسوء حفظه، وقد نبَّه علىٰ ذلك شيخنا المحدِّث العلاَّمة محمد عمرو عبد اللطيف، يقول -حفظه الله-: «إسناد حديث أبي هريرة ضعيف جدًّا، وصالح متروك كما قال الذهبي، وقد تركه ووهاه الجمهور، فاعتماد القول بضعفه -حسب- غير لائق.

أما حديث ابن عمرو من طريق ابن لهيعة ثنا بكر بن عمرو عن أبي عبد الرحمن الحبلي عنه، فإنه -علىٰ وهائه- معلول، فقد رواه ابن المبارك (زوائد نعيم، ٨٥): أنا سعيد بن أبي أيوب عن بكر بن عمرو عن صفوان بن سليم معضلاً به، فالمتن لا يثبت بمجموع هذه الطريقين كما هو بيِّن، والله أعلم.

ومما صح -في هذا المعنىٰ- قول ابن مسعود -رضي الله عنه-: «إن الله لا يقبل من مسمع ولا مراء، ولا لاعب، ولا داع إلا داعيًا دعاءً ثبتًا من قلبه».

رواه ابن المبارك (زوائد:٨٣)، وأحمد (ص١٥٩) ووكيع (٣٠٥) والبخاري في «الأدب» (٢١٢، ٢١٣) بسند صحيح عنه» انتهىٰ.

(١) أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٤/ ٤٥٢) قال: حدثنا محمد بن إسماعيل قال: حدثنا سنيد بن داود قال: حدثنا عيسىٰ بن يونس عن الأوزاعي قال: كان يُقال ... فذكره.

قلت: سنيد بن داود هو المصيصي أبو علي المحتسب، واسمه الحسين، وسنيد لقب، قال فيه أبو داود: لم يكن بذلك. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: ضعيف. وقال =

وفي الطبراني، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، أن النبي ﷺ دعا يَومَ عرفة فقال: «اللَّهُمَّ إنَّك ترى مكاني وتسمعُ كلامي، ولا يَخْفَى عليك شيءٌ من أمري، أنا البائس الفقير المستغيث المستجيرُ الْوَجِلُ[1] الْمُشْفِق الْمُقِرُّ المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهلُ إليك ابتهال الْمُذنب الذليل، وأدعوكَ دعاءَ الْخَائفِ الضرير[2]، ومن خضعَت لك رقبته، وذلَّ لك جسده، ورَغِمَ لك أنفُه[3]، وفاضت لك عيناه، اللَّهُمَّ لا تَجْعلني بدعائك شقيًّا، وكُن بِي بارًّا رؤوفًا رحيمًا يا خير المسئولين ويا خير الْمُعطين»[4].

=

مرة: صدوق. وقال النسائي: ليس بثقة. وذكره ابن حبان في الثقات.
هذا وقد تابعه عبد الرحيم بن مطرف كما عند البيهقي في «شعب الإيمان» (١١٠٧) قال: أخبرنا أبو علي الروذباري، أنا الحسين بن الحسن بن أيوب الطوسي، أنا أبو حاتم الرازي عن عبد الرحيم بن مطرف ثنا عيسىٰ بن يونس، عن الأوزاعي قال: أفضل الدعاء... فذكره.
قال البيهقي -رحمه الله-: «هكذا رواه من قول الأوزاعي، وهو الصحيح» انتهىٰ.

(١) الوَجِل: أي الخائف. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (وجل).

(٢) الضرير: هو ذاهب البصر. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (ضرر).

(٣) الرَّغَام: هو التراب، وقوله: «رغم لك أنفه»؛ أي: التصق بالتراب. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (رغم).

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ١٧٤/ ١١٤٠٥)، وفي «المعجم الصغير» (٦٩٦)، وفي «الدعاء» (٨٧٧)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/ ١٦٣) من طريق يحيىٰ بن صالح الأيلي عن إسماعيل بن أمية عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنه- مرفوعًا به.
قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه يحيىٰ بن صالح الأيلي، قال ابن حجر في «التهذيب»: «ذكره العقيلي في الضعفاء، وقال: روىٰ عنه يحيىٰ بن بكير مناكير، ثم ذكر منها جملة، وقال: مقلوبة، فإنها لعمر بن قيس أشبه، وذكره ابن عدي في الكامل، ونقل عن ابن بكير أنه لقيه بأيلة سنة سبع وتسعين وذكر له أحاديث، وقال: كلها غير محفوظة». انتهىٰ
هذا وقد ضعَّف الحديث أيضًا الحافظ الهيثمي كما في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٥٢)
=

[من دعاء بعض الصالحين]

وكان بعضهم يقول في دعائه: «بعزِّك وذُلِّي وغناكَ وفقري».

وقال طاووس -رَحمهُ الله تعالَىٰ-:

«دخـل عـليٌّ بن الحسين -رَحمهُ الله تعالَىٰ- ذات ليلةٍ الحـجر يصلي، فسمعتُه يقـول في سجـوده: عُبَيْدك بفنائك، مسـكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك».

قال طاووس: «فحفظتهن فما دعوتُ بِهنَّ في كَرْبٍ إلاَّ فُرِّج عني»، خَرَّجه ابن أبي الدنيا(١).

وروىٰ ابن باكويه الصوفي -رَحمَه الله تعالَىٰ- بإسناد له أنَّ بعض الْعُبَّاد حجَّ ثمانين حَجَّة علىٰ قَدميه، فبينما هو في الطواف وهو يقول: «يا حبيبي، وإذا بِهاتف يَهتف به: ليس ترضىٰ أن تكون مسكينًا حتىٰ تكون حبيبًا، قال: فغُشي عليَّ، ثُم كـنت بعـد ذلك أقـول: مسكينكِ مسكينك، وأنا تـائبٌ عن قول: حـبيبي»(٢).

=

حيث قال: «... وفيه يحيىٰ بن صالح الأيلي، قال العقيلي: روىٰ عنه يحيىٰ بن بكير مناكير، وبقية رجاله رجال الصحيح» انتهىٰ.

وضعَّف الحديث أيضًا العلامة الألباني -رحمه الله- كما في «ضعيف الجامع» (١١٨٦).

(١) خرَّجه ابن أبي الدنيا في كتابه «الفرج بعد الشدة» (٦٩) قال: حدثني محمد بن الحسين قال: حدثني عبيد الله بن محمد التميمي قال: حدثني شيخ مولىٰ لعبد القيس عن طاووس ... فذكره.

قلت: وإسناده ضعيف؛ لجهالة هذا الشيخ الذي يروي عن طاووس.

(٢) قال شيخنا العلاَّمة المحدِّث الجليل محمد عمرو عبد اللطيف -حفظه الله ورعاه-: «في هذه الحكاية نظر، وفيها من المآخذ الشرعية تعذيب النفس، والحمل عليها =

فصل

[في بيان فضل المسكنة والمساكين]

خَرَّج ابنُ ماجة من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ أحيني مسكينًا، وأمِتْني مسكينًا، واحشرني في زُمْرة المساكين»(1).

=

بكثرة الحج على الأقدام، وقد نعى النبي ﷺ على فاعله في أكثر من حديث، وكذلك الهواتف التي يدَّعون سماعها في كثير من مثل هذه الحكايات والخيالات.

ثم إن قول الرجل: «يا حبيبي» لا بأس به، إذ الحبيب المحبوب، وإنما يُنكر عليه لو قال: «يا محبي» فإنه لا يدري أيُحبه الله عز وجل أم لا؟. فالكلام المنسوب إلى الهاتف غير صحيح إذ لا يلزم مما قال الرجل أن يكون هو أيضًا حبيبًا لله -عز وجل- كما لا يخفى، والأولى الاقتداء بالأنبياء والمرسلين في قولهم: «ربنا ربنا» كما جاء معناه عن بعض السلف، وكذلك: «اللهم و ربِّ» كما استفاض كل ذلك في القرآن والسنة، ثم الإمساك عن هذه الصوفيات الفارغة هو خير» انتهى.

(1) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤١٢٦)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٣٥٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٩٩، ١٠٥٠٦)، وفي «السنن الكبرى» (٧/ ١٢)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٦١٥)، وفي «الدعاء» (١٤٢٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٠٠٢)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ١١١)، والبخاري في «الكنى» (٧١٨)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١١، ١٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ١٢٢) وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قلت: وإسناده ضعيف لسببين:

الأول: فيه أبو المبارك، وهو مجهول كما قال أبو حاتم الرازي، والترمذي، والذهبي، وابن حجر، وأما ذكر ابن حبان له في كتابه «الثقات»، فهو مما عُرف عنه من توثيقه =

وخرَّج الترمذي من حديث أنس -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ مثله، وزاد فقالت عائشة -رضي الله عنها-: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «إِنَّهُم يَدخلونَ الْجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفًا، يا عائشة لا تردِّي المسكين ولو بشقِّ تَمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقربيهم، فإن الله يُقربك يوم القيامة»[1].

=

للمجاهيل والضعفاء.

الثاني: فيه يزيد بن سنان وقد ضعَّفه أكثر الأئمة.

هذا؛ وقد ضعَّف الحديث كثيرٌ من الأئمة، ومنهم الحافظ ابن كثير، والبوصيري، وغيرهما.

وللحديث شواهد أخرىٰ، ولكنها ضعيفة كلها، وقد سبق الكلام عنها في مفتتح الكتاب.

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٥٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٥٣، ١٠٥٠٧)، وفي «السنن الكبرىٰ» (٧/ ١٢)، وغيرهم من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قلت: وهو حديث ضعيف جدًّا، وقد ضعَّفه جمعٌ من الأئمة، منهم الترمذي، والبيهقي، وابن كثير، وابن رجب، والألباني وغيرهم.

قال الترمذي -رحمه الله- عقب إخراج الحديث: «حديث غريب».

قلت: يعني: ضعيف.

وطعن فيه البيهقي -رحمه الله- أيضًا بقوله عقب إخراجه: «فهو إن صح طريقه، وفيه نظر...» انتهىٰ.

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ٥٠): «وفي إسناده ضعف، وفي متنه نكارة، والله أعلم» انتهىٰ.

وقال الحافظ ابن رجب -رحمه الله- كما سيأتي كلامه قريبًا: «وحديث أنس -رضي الله عنه- يشهد لهذا إلا أن إسناده ضعيف».

وضعَّفه أيضًا العلامة الألباني -رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٣/ ٣٥٩) وغيره.

قلت: وعلة الحديث الحارث بن النعمان الليثي، قال فيه البخاري: «منكر الحديث». وهذا تضعيف شديد منه، فقد ذكروا عنه أنه قال: «كل من قلت فيه منكر الحديث، فلا تحل الرواية عنه».

وقال أبو ذر: «أوصاني رسول الله ﷺ أن أحبَّ المساكين وأدنوَ منهم». خرَّجه الإمام أحمد وغيره[1].

وفي حديث معاذ -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ أنه قال في قصة المنام: «أسألك فعل الخيرات، وتركَ المنكرات، وحبَّ المساكين». وذكر الحديث[2].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٥٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٤٩)، والطبراني في «الصغير» (٧٥٨)، وفي «الدعاء» (١٦٤٨- ١٦٥٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٢٩، ٧٥٨٣)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٠/ ٩١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٥٧)، وابن سعد في «الطبقات الكبرىٰ» (٤/ ٢٢٩)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٥/ ٣٥٤)، و(١٢/ ٤٣٨) وغيرهم من طرق: عن محمد ابن واسع، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال:

«أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين، والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أن أقول بالحق وإن كان مُرًّا، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أُكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنْز تحت العرش». وهذا لفظ الإمام أحمد.

قلت: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وعبد الله بن الصامت هو الغفاري البصري ابن أخي أبي ذر، وقد وثَّقه النسائي، والعجلي، وابن حبان، وابن سعد، وقال أبو حاتم: يُكتب حديثه.

ونقل الذهبيُّ عن بعضهم أنه قال: ليس بحجة.

قلت: وهذا الكلام لا ينبغي التعويل عليه؛ لأنه جرحٌ مبهم، ولا يُدرىٰ من قائله!.

هذا وقد صحَّح الحديث العلامةُ الألبانيُّ -رحمه الله- في «السلسلة الصحيحة» (٢١٦٦).

(٢) وهذا جزء من حديث طويل يُسمَّىٰ عند أهل العلم بحديث «قصة المنام» أو حديث «اختصام الملأ الأعلىٰ»، وقد أفرده الحافظ ابن رجب بجزء قام فيه بشرحه، وهو جزءٌ مشهور يُعرف بـ«اختيار الأولىٰ في شرح حديث اختصام الملأ الأعلىٰ».

وقد رواه جمعٌ كبير من الصحابة عن رسول الله ﷺ حتىٰ قال الإمام ابن منده في كتابه «الرد علىٰ الجهمية» (ص٤٩): «ورُوي هذا الحديث عن عشرة من أصحاب النبي ﷺ، ونقلها عنهم أئمة البلاد من أهل الشرق والغرب».

=

قلت: بل رُوي عن أكثر من عشرة من الصحابة، وقد وقفت علىٰ رواية اثني عشر صحابيًا لهذا الحديث، وهم:

عبد الله بن عباس، ومعاذ بن جبل (وهو الحديث الذي معنا)، وعبد الرحمن بن عائش، وثوبان، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو رافع، وأبو هريرة، وأنس بن مالك، وأبو أمامة، وعمران بن حصين، وعبد الله بن عمر، وجابر بن سمرة -رضي الله عنهم- جميعًا.

قلت: وعلىٰ الرغم من وروده عن هذا العدد الكبير من الصحابة، إلا أنَّ أهل العلم تنازعوا في صحته وثبوته نزاعًا كبيرًا، فرأىٰ فريقٌ منهم صحته وثبوته، ورأىٰ فريقٌ آخر ضعفه وعدم ثبوت أي طريق له من هذه الطرق كلها!!.

ولا أستطيع في هذا المقام أن أبسط كلامهم، وأعرض كل أقوالهم، وأتعرض لكل طرق الحديث، إذ الكلام عنه يحتمل رسالة مستقلة، وإنما سأذكر شيئًا يسيرًا من كلامهم عن هذا الحديث، وخاصة ما يتعلق بحديث معاذ بن جبل، وهو الحديث الذي نحن بصدده، فنقول وبالله تعالىٰ التوفيق:

أما حديث معاذ بن جبل -رضي الله عنه-:

فقد خرَّجه الترمذي في «سننه» (٣٢٣٥)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ٢٤٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ١٠٩)، وفي «الدعاء» (١٤١٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ٤٦٦)، والدارقطني في «كتاب الرؤية» (٢٥٥، وما بعده)، وابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (٢/ ٥٤٠- ٥٤٢) وغيرهم من طريق: جهضم بن عبد الله، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن أبي سلام، عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي أنه حدثه عن مالك بن يخامر السكسكي، عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال:

احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتىٰ كدنا نتراءىٰ عين الشمس، فخرج سريعًا فثوِّب بالصلاة، فصلىٰ رسول الله ﷺ، وتجوَّز في صلاته فلما سلَّم دعا بصوته قال لنا: «على مصافكم كما أنتم»، ثم انفتل إلينا ثم قال: «أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة إني قمت من الليل فتوضأت وصليت ما قُدِّر لي فنعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمد، قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري، قالها ثلاثًا، قال: فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلَّى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد، قلت: لبيك رب، قال: فيم

يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: ما هنَّ؟ قلت: مشي الأقدام إلى الحسنات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء حين الكريهات، قال: فيم قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل، والناس نيام، قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون، أسألك حبك وحب من يُحبك، وحب عمل يُقرِّب إلى حبك». قال رسول الله ﷺ: «إنها حقٌّ فادرسوها ثم تعلموها» وهذا لفظ الترمذي.

قلت: وقد اختلف أهل العلم في ثبوت هذا الحديث وضعفه، فرأىٰ فريقٌ منهم صحته ومنهم:

١] الإمام الترمذي -رحمه الله- فقد قال عقب إخراجه للحديث: «هذا حديث حسن صحيح. سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث حسن صحيح. وقال: هذا أصح من حديث الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدثنا خالد بن اللجلاج حدثني عبد الرحمن بن عائش الحضرمي قال: سمعت رسول الله ﷺ فذكر الحديث، وهذا غير محفوظ. هكذا ذكر الوليد في حديثه عن عبد الرحمن بن عائش قال: سمعت رسول الله ﷺ.

وروىٰ بشر بن بكر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر هذا الحديث بهذا الإسناد عن عبد الرحمن بن عائش عن النبي ﷺ. وهذا أصح، وعبد الرحمن بن عائش لم يسمع من النبي ﷺ».

٢] العلامة الألباني -رحمه الله- فقد قال في كتابه «ظلال الجنة» (١/ ١٨٠/ ٣٨٨):

«...وقد جاء بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن عايش الحضرمي عن مالك بن يخامر أن معاذ بن جبل قال: فذكره بطوله. أخرجه أحمد ثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم ثنا جهضم يعني اليمامي ثنا يحيىٰ بن أبي كثير ثنا زيد يعني ابن سلام، عن أبي سلام وهو زيد بن سلام بن أبي سلام نسبة إلىٰ جده أنه حدثه عبد الرحمن بن عياش كذا الحضرمي به.

قلت (أي: الألباني): وهذا إسناد متصل صحيح رجاله ثقات، وقد صححه أحمد وكذا ابن خزيمة كما في التهذيب، وأخرجه الترمذي من طريق أخرىٰ عن جهضم بن عبد الله به، وقال: حديث حسن صحيح. سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث حسن صحيح». انتهىٰ

قلت: ورأىٰ آخرون من أهل العلم ضعف الحديث وعدم ثبوته، وأعلُّوه بعدة عللٍ منها:

أولاً: عنعنة يحيىٰ بن أبي كثير إذ هو مدلس، وقد نفىٰ بعض الأئمة سماعه من زيد ابن سلام.

يقول الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم في كتاب «المراسيل» (ص٢٤١/ ٨٩٦): «سمعتُ أبي يقول: سمعت يحيىٰ بن معين يقول: يحيىٰ بن أبي كثير لم يسمع من زيد بن سلام شيئًا. قال أبي: وقد سمع منه». انتهىٰ

ويقول الإمام ابن خزيمة -رحمه الله- في «كتاب التوحيد» (٢/ ٥٤٦): «ولعل بعض من لم يتحر العلم يحسب أن خبر يحيىٰ بن أبي كثير عن زيد بن سلام، ثابت؛ لأنه قيل في الخبر عن زيد أنه حدثه عبد الرحمن الحضرمي، يحيىٰ بن أبي كثير -رحمه الله- أحد المدلسين لم يخبر أنه سمع هذا من زيد بن سلام» ثم ساق حكاية تبين أن يحيىٰ بن أبي كثير كان عنده كتب لأبي سلام وكان يحدث منها، فسئل هل سمعها منه؟ فأخبر أنه لم يسمعها منه، ولا من الرجل الذي سمعها منه!!.

ثانيًا: وقد أُعلَّ هذا الحديث أيضًا باضطراب إسناده، والاختلاف الشديد علىٰ عبد الرحمن بن عائش فيه، وقد نصَّ علىٰ ذلك أئمة كبار أمثال الحافظ الدارقطني، والعلائي، وابن الجوزي.

يقول الحافظ العلائي -رحمه الله- في «جامع التحصيل» (٤٣٥): «عبد الرحمن بن عايش الحضرمي صاحب حديث: «رأيت ربي في أحسن صورة» رواه في بعض الطرق عن النبي ﷺ، وروىٰ أيضًا عن رجل عن النبي ﷺ، وعنه عن مالك بن يخامر، عن معاذ عن النبي ﷺ، وفيه اضطراب كثير، قال أبو حاتم: أخطأ من قال له صحبة». انتهىٰ

وسئل الحافظ الدارقطني -رحمه الله- في كتابه «العلل» (٦/ ٥٤/ ٩٧٣): عن حديث مالك بن يخامر عن معاذ عن النبي ﷺ قال: «رأيت ربي في أحسن صورة، فقال لي: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلىٰ» الحديث بطوله»... فتكلم عن أسانيده كلها، والاختلاف الذي فيها، ثم قال: «ليس فيها صحيح، وكلها مضطربة». انتهىٰ

ويقول الإمام ابن الجوزي -رحمه الله- في كتابه «العلل المتناهية» (١/ ٣٤) بعد أن أورد الحديث: «أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة، قال الدارقطني: كل أسانيده مضطربة ليس فيها صحيح. قال: وقد رواه عن أنس، ورُوي عن قتادة عن أبي قلابة عن خالد بن اللجلاج عن ابن عباس، وهو غلط، والمحفوظ أن خالد بن اللجلاج

[المُراد بالْمَسَاكين]

والمراد بالمساكين في هذه الأحاديث ونحوها: مَنْ كان قلبُه مستكينًا لله خاضعًا له خاشعًا، وظاهره كذلك، وأكثر ما يوجد ذلك مع الفقر من المال؛ لأن المال يُطغي، وحديث أنس -رضي الله عنه- يشهد لِهذا إلاَّ أن إسناده ضعيف.

وخرَّج النسائي من حديث أبي ذر -رضي الله عنه-، أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الفقر فقر النفس، والغنى غِنَى القلب»[1].

=

رواه عن عبد الرحمن بن عائش، وعبد الرحمن لم يسمعه من رسول الله ﷺ إنما رواه عن مالك بن يخامر عن معاذ.

قال أبو بكر البيهقي: قد رُوي من أوجه كلها ضعاف» انتهىٰ.

ويقول الإمام ابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (٢/٥٤٦) بعد أن ساق كثيرًا من أسانيد وطرق الحديث: «فليس يثبت من هذه الأخبار شيء من عند ذكرنا عبد الرحمن بن عائش إلىٰ هذا الموضع، فبطلَ الذي ذكرنا لهذه الأسانيد».

ويقول الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لمسند الإمام أحمد (٢٢١٦٢) معلقًا علىٰ حديث معاذ الذي نحن بصدده: «ضعيف لاضطرابه، ومداره علىٰ عبد الرحمن بن عائش، وقد اختلف فيه عليه».

وفي تعليقه علىٰ حديث ابن عباس قال: «إسناده ضعيف... وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية: أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة. قال الدارقطني: كل أسانيده مضطربة ليس فيها صحيح...» ثم ذكر الشيخ شعيب أحاديث أخرىٰ في الباب عن عدد من الصحابة وعلَّلها ثم قال: «فهذه الأحاديث كلها تدور علىٰ الضعفاء والمجاهيل».

هذا، وانظر للمزيد: كتاب «العلل» للدارقطني (٦/ ٥٤/ ٩٧٣)، و«كتاب رؤية الله» (٢٥٣-٢٨٨) له أيضًا، و«كتاب التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٥٤٠) وما بعدها، و«العلل المتناهية» لابن الجوزي (١٠-٣)، و«إرواء الغليل» (٦٨٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٣١٦٩)، كلاهما للألباني.

(١) وهو جزء من حديث طويل عن أبي ذر -رضي الله عنه-، وقد أخرجه النسائي في «السنن الكبرىٰ» في «الرقائق» (٩/١٥٧- كما في تحفة الأشراف)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٨٥)، والحاكم في «مستدركه» (٧٩٢٩)، و البيهقي في «شعب الإيمان»
=

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إِنَّما الْغِنَى غِنَى النَّفْس»(١).

[فقر النفس هو الفقر الذي استعاذ منه النبي ﷺ]

ولِهذا قال الإمام أحمد وابن عُيينة، وابن وهب، وجماعة من الأئمة: «إن الفقر الذي استعاذَ مِنْهُ النبي ﷺ هو فقر النفس».

فمن استكان قلبه لله -عَزَّ وَجَلَّ- وخشع له، فهو مسكين وإن كان غنيًا من المال؛ لأن استكانة القلبِ لا تنفكُّ عن استكانة الجوارح.

ومَن خشع ظاهره واستكان، وقلبُه ليس بخاشع ولا مستكين فهو جبار.

وفي الحديث الذي خرَّجه النسائي وغيره، أنَّ النبي ﷺ مرَّ في طريق وفيه امرأة فقال لَها رجل: الطريق. فقالت: إن شاء آخذ يَمنة ويسرة. فقال رسول الله ﷺ: «دعوها فإنَّها جبارة». فقالوا: يا رسول الله، إنَّها -يعني: إنَّها مسكينة- قال: «إنَّ ذاكَ في قلبها»(٢).

=

(١٠٣٤٤)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٠٢٠) من حديث أبي ذر -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط البخاري ولم يخرجاه بهذه السياقة إنما خرجاه من طريق الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر مختصرًا».

قلت: وليس كما قال -رحمه الله-، فليس هذا الحديث علىٰ شرط البخاري، فإن في إسناده عبد الله المصري كاتب الليث، ولم يرو له البخاري احتجاجًا، إنما روىٰ له تعليقًا، وبقية رجال الإسناد من رجال مسلم، ولذلك قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لـ «صحيح ابن حبان»: «إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم».

قلت: وقد صحَّح الحديث أيضًا الشيخ حمدي السلفي في تحقيقه لـ «مسند الشاميين»، وصححه أيضًا العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨١٦).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٠٨١)، ومسلم في «صحيحه» (١٠٥١) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) خرَّجه النسائي في «السنن الكبرىٰ» (١٠٣٩١)، وفي «عمل اليوم والليلة» (٥٥٧) من

طريق: عافية بن يزيد، عن سليمان الهاشمي، عن أبي بردة بن أبي موسىٰ، عن أبيه أبي موسىٰ الأشعري مرفوعًا به.

قلت: وإسناده ضعيف، فيه رجل لا يُعرف.

قال النسائي -رحمه الله- عقب إخراجه للحديث: «عافية بن يزيد ثقة، وسليمان الهاشمي لا أعرفه».

هذا؛ وقد ورد الحديث من طريق آخر غير طريق سليمان الهاشمي، كما خرَّجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٩٩- مجمع الزوائد)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٥٠٩) من طريق بلال بن أبي بردة، عن أبيه أبي بردة، عن جده أبي موسىٰ الأشعري مرفوعًا به.

قلت: بلال بن أبي بردة لم يُوثقه أحد اللهم إلا أن ابن حبان ذكره في كتابه «الثقات»، فكان ماذا؟!، وقال فيه الحافظ في «التقريب»: «مقل»!!.

ولذلك ضعَّف الهيثمي الحديث في «مجمع الزوائد» بقوله عقب ذكره للحديث: «رواه الطبراني في الكبير، وفيه بلال بن أبي بردة».

هذا، وللحديث شواهد أخرىٰ، فقد ورد:

أولاً: من مسند أنس بن مالك:

خرَّجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨١٦٠)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (٣٢٧٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٩١)، وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (١٩٧) كلهم من طريق: يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- مرفوعًا به.

قلت: وإسناده ضعيف جدًّا؛ فيه يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني متهم بالكذب.

يقول الهيثمي -رحمه الله- في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٩): «رواه الطبراني في الأوسط وأبو يعلىٰ، وفيه يحيىٰ الحماني، ضعفه أحمد ورماه بالكذب، ورواه البزار وضعَّفه براو آخر».

ويقول حسين سليم أسد محقق «مسند أبي يعلىٰ»: «إسناده ضعيف، لضعف يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني، ... وأورده الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» برقم (٣٢١٥). ونقل الشيخ حبيب الرحمن قول البوصيري في الإتحاف: «رواه أبو يعلىٰ عن يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني، وقد ضعفه الجمهور». انتهىٰ

ثانيًا: من مسند أبي الطفيل:

خـرَّجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٩٧٨) قال: حدثنا محمـد بن عـلي بن الأحمر الناقد، قال: نا طالوت بن عباد، قال: نا ديلم بن غزوان قال: ثنا وهب بن أبي دُبي، عن أبي حرب أو أبي الطفيل مرفوعًا به.

قال الطبراني عقبه: «لا يُروىٰ هـذا الحديث عن أبي الطفيل إلا بهذا الإسناد، تفرد به ديلم بن غزوان».

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٩، ١٠٠) عقب ذكره للحديث: «قلت: ذكر هذا في ترجمة أبي الطفيل، والذي قبله في ترجمة أبي موسىٰ، فلا أدري حاله علىٰ أي شيء، والله أعلم». انتهىٰ

قلت: ولم يتبين لي المراد من قول الهيثمي: «فلا أدري حاله علىٰ أي شيء»!، هل يقصد أنه لم يتبين له حال الحديث من حيث الصحة أو الضعف؟ أم أنه يقصد أحد رواة إسناده! أم أنه حدث في عبارته سقط أو تحريف، فالله أعلم بالصواب.

والذي يغلب علىٰ ظني أنه قد حدث في عبارته سقط، وقد يكون قصده بعبارته هذه محمد بن علي بن الأحمر الناقد، فقد بحثت عنه أيضًا وفتَّشتُ فلم أقف له علىٰ ترجمة، ولم يتبين لي حاله.

وأما طالوت بن عباد فهو الصيرفي، قال في «لسان الميزان»: «شيخ معمر ليس به بأس، قال أبو حاتم: صدوق. وأما ابن الجوزي فقال من غيره ثبت: ضعفه علماء النقل!!. قلت: إلىٰ الساعة أفتش فما وقفت بأحد ضعَّفه،... وذكره ابن حبان في الثقات... وقال الحاكم في التاريخ: سئل صالح جزرة عنه فقال: شيخ صدوق».

وأما ديلم بن غزوان فهو العبدي أبو غالب البرَّاء (بتشديد الراء) البصري، قال فيه ابن معين: صـالح. وقال أبو حاتم: ليس به بأس شيخ وهو أحب إليَّ من علي بن أبي سارة. وقال أبو داود: ليس به بأس. وقيل له: أيما أحب إليك هو أو هشـام بن حسان؟ قال: هشام فـوقه بكثير، ثم قـال: ديلم شويخ!. وقال الحافظ ابن حـجر: صـدوق وكان يرسل.

وأمـا وهب بن أبي دبي فهو منسوب إلىٰ جده، واسم أبيه عبد الله، ويُقال: وهب بن عبد الله بن كعب بن سور الأزدي الهنائي: وقد وثقه ابن معين.

قلت: وخلاصة القول أن هذا الإسناد لا بأس به إن كان محمد بن علي بن الأحمر الناقد ثقة، إلا أنني لـم أقف لـه عـلىٰ ترجمة، ولا أعرف حاله، فالإسناد عندي

وقال الحسنُ -رَحمه الله تعالَىٰ-: «إن قومًا جعلوا التواضع في لباسهم، والْكِبْرَ في قلوبهم، لبسوا مدارع الصوف، والله لأحدهم أشدُّ كِبْرًا بمِدْرَعته[١] من صاحب السرير بسريره، وصاحب الْمُطْرفِ[٢] بِمُطْرَفِهِ»[٣].

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه أنكر أن يكون لبس الثوب الحسن والنعل الحسن كِبْرًا، وقال: «الْكِبْرُ بَطر الْحَق وغَمْطُ النَّاس»[٤].

=

ضعيف، والله أعلم بالصواب.

(١) الْمِدْرَعَةُ: هي الجُبَّةُ. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (درع).

(٢) الْمُطْرَفُ: بضم الميم وكسرها، واحد المطارف، وهي أردية من خَزٍّ مربَّعةٍ لها أعلام. وانظر «مختار الصحاح»، مادة (طرف).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٦٦) قال: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا حماد بن زيد عن رجل، عن أبي بكر، عن الحسن قال:
إن أقوامًا جعلوا الكبر في قلوبهم، والتواضع في ثيابهم، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرفة بمطرفه ما لم تفاقروا.
وأخرجه أيضًا ابن سعد في «الطبقات الكبرىٰ» (٧/ ١٦٩) قال: أخبرنا عمرو بن عاصم قال: حدثنا يزيد بن عوانة قال: حدثني أبو شداد شيخ من بني مجاشع أحسن الثناء عليه، قال: سمعت الحسن: وذُكر عنده الذين يلبسون الصوف، فقال: ما لهم تفاقدوا ثلاثًا، أكنوا الكبر في قلوبهم وأظهروا التواضع في لباسهم، والله لأحدهم أشد عجبًا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه.
قلت: أما الإسناد الأول، وهو إسناد ابن أبي الدنيا، فهو إسناد ضعيف؛ فيه راوٍ مبهم لم يُسم.
وأما الإسناد الثاني، وهو إسناد ابن سعد، فهو إسناد ضعيف أيضًا، فيه يزيد بن عوانة، لم يوثقه أحد، وقد ترجم له العقيلي في كتابه «الضعفاء» (٤/ ٣٨٨)، وأبو شداد الذي يروي عن الحسن لم أعرفه.

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال رجل: إن الرجل يُحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس».

وهذا تصريحٌ بأن حُسْن اللباس ليس بكبر، وأن الكِبْر إنَّما هو في القلب وهو عدم الانقياد للحق تَكَبُّرًا عليه.

وغَمْطُ الناس: هو احتقارهم، وازدراؤهم.

فمن كان في نفسه عظيمًا بِحيث يَحقر الناس لاستعظام نفسه، ويأنَف من الانقياد للحق تَكَبُّرًا عليه فهو المتكبر، وإن كان ثوبُه ليس بِحسن، ونعلُه ليس بِحسن.

ومن تَرك اللباس الْحَسَن تواضعًا لله وخشية أن يقع في نفسه شيءٌ من الكِبْر فقد أحسنَ فيما فعل، فقد كان ابن عُمر -رضي الله عنهما- يفعل ذلك.

وقول النبي ﷺ في الأنبجانية التي لبسها: «إنَّها أَلْهَتْني آنفًا عن صلاتي»[1]، يدل على ذلك.



(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٦٦، ٥٤٧٩)، ومسلم في «صحيحه» (٥٥٦) عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قام رسول الله ﷺ يُصلي في خميصة ذات أعلام، فنظر إلى علمها فلما قضى صلاته قال:

«اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبي جهم بن حذيفة وائتوني بأنبجانية، فإنها ألهتني آنفًا في صلاتي».

فصل

[في فضل مقام العبودية]

ومِمَّا اختاره النبي ﷺ مَقام العبودية على مقام الْمُلك، وقام بين يديه ﷺ رَجُلٌ يَوْمَ الْفَتْح فارتعدَ فقال له: «هَوِّن عَلَيْكَ إنِّي لَسْتُ بِمَلِك، إنَّمَا أنا ابنُ امرأة من قُرَيش كانت تأكلُ القديد[1]»[2].

---

(١) القديد: هو اللحم المملح المجفف في الشمس. وانظر «لسان العرب»، مادة (قدد).

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٣٣١٢)، والحاكم في «مستدركه» (٤٣٦٦)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٧٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٨٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٨٢) من طريق: جعفر بن عون قال: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي مسعود -رضي الله عنه- مرفوعًا به.
وأخرجه الحاكم أيضًا (٣٧٣٣) ولكن من طريق: عباد بن العوام، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله مرفوعًا به!!.
قلت: خالف عباد بن العوام جعفر بن عون فجعله من مسند جرير بن عبد الله!!.
هذا وقد تُوبع عباد بن العوام، تابعه عيسىٰ بن يونس كما عند الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٢٦٠) قال: حدثنا أحمد، قال: حدثنا محمد بن كعب الحمصي، قال: حدثنا شقران، قال: حدثنا عيسىٰ بن يونس عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله: ... فذكره.
قلت: ولكن هذه المتابعة لا تصح إذ أن في إسنادها من لا يُعرف، وهما محمد بن كعب الحمصي، وشقران، ولذلك قال الهيثمي -رحمه الله- في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٠) عن حديث جرير هذا: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه من لم أعرفهم».
وأخرجه الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٨٢) من طريق آخر عن عيسىٰ بن يونس، إلا أنه قال عقب إخراجه للحديث: «هذا غريب جدًّا من حديث جرير بن عبد الله، وإنما يُحفظ من حديث قيس عن أبي مسعود البدري، وهو غريب أيضًا». =

هذا، وقد صحح هذين الحديثين -أي: حديث أبي مسعود، وحديث جرير- الحاكم، فقال -رحمه الله- عقب إخراج كلٍ منهما: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه».
وصحَّحهما أيضًا العلامــة الألباني -رحـمه الله- في «السلسلة الصحيحة» (١٨٧٦)، وفي «صحيح الجامع» (٧٠٥٢).
وصحح الحديث الأول -حديث أبي مسعود- أيضًا البوصيري في «الزوائد» فقال: «هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات».
قلت: وفي هذا التصحيح نظر، وذلك لأن الحديث مُعلٌّ بالإرسال كما جزم بذلك أئمة كبار حفاظ، أمثال الدارقطني، والبيهقي، وابن عدي.
وقد رأيت أن سوق كلامهم جميعًا سيطول به المقام، وقد لَخَّص كلامهم وساقه في أحسن سياق شيخنا العلامة المحدث الجَليل محمد عمرو عبد اللطيف حفظه الله فقال: «الحديث مُعلٌّ بالإرسال كما جزم بذلك الدارقطني والبيهقي، وأشار إليه ابن عدي. وقد نص العلماء -مع ما وقفت عليه وسوىٰ ما غاب عني- علىٰ أنه قد أرسله عن إسماعيل بن أبي خالد سبعة -كلهم ثقات حفاظ- وهم:
يحيىٰ القطان، وزهير بن معاوية، وابن عيينة، وهشيم -لكن عنعن عند الخطيب- وأبو معاوية، ويزيد بن هارون، وعبد الله بن نمير.
انظر «الطبقات» (١/ ٢٣)، و«زهد هناد» (٨٠٢)، و«الكامل» (٦/ ٢٢٨٨)، و«تاريخ بغداد» (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨).
ورجح البيهقي -رحمه الله- في «دلائل النبوة» (٥/ ٦٩) إرساله عن جعفر بن عون نفسه، فقد رواه أولاً من طرق عن إسماعيل بن أبي الحارث عنه به موصولاً، ثم من طريق محمد بن عبد الوهاب (وهو النيسابوري الفراء، أحد الثقات الحفاظ) أنبأنا جعفر بن عون... فذكره مرسلاً، وقال: «هذا مرسل، وهو المحفوظ».
قلت: وإسماعيل ثقة لم يُوصف بحفظ، ولم يزل الناس يستغربون ويستنكرون تفرده به عن جعفر بهذا الإسناد الموصول الذي ظاهره الصحة، حتىٰ طالبه أحد الأئمة ألا يُحدِّث به إلا من السنة إلىٰ السنة فأبىٰ.
ولا يصح تعقب الخطيب علىٰ الدارقطني بأنه قد تابعه علىٰ وصله عن جعفر: محمد بن إسماعيل بن علية، فإن الإسناد الذي وصله به الخطيب عنه لا يثبت إليه، ففيه محمد بن بكار السكسكي القاضي، ترجم له ابن عساكر (١٥/ ١٤١، ١٤٢) فلم

يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، فصح ترجيح البيهقي، والله أعلىٰ وأعلم.
وجعفر بن عون قد روىٰ عنه الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه، وعبد بن حميد، وشيوخ الأئمة الستة، فلماذا تحاشوا جميعًا -سوىٰ ابن ماجه- إيداع هذا الحديث في كتبهم إن كانوا سمعوه منه موصولاً بإسناد كالشمس كهذا؟!.
وما معنىٰ تحاشي الطبراني إيراد الحديث في مسند أبي مسعود البدري، وجرير بن عبد الله من «معجمه الكبير» مع أنه يُدخل فيه كل غث وسمين؟! حتىٰ ابن حبان الذي يأخذ بالزيادة -غالبًا إن لم يكن مطلقًا- لم يدخله في صحيحه، فهل فات الحديث كل هؤلاء؟ وبقيت أمور لا يتحملها هذا المقام، فالله المستعان لا رب سواه». انتهىٰ
قلت: وفي «الزوائد» للبوصيري:
«وقال السيوطي: قال ابن عساكر: هذا الحديث معدود في أفراد ابن ماجه، وقد استغربه حجاج بن الشاعر، وأشار علىٰ إسماعيل أن لا يحدث به إلا مرة في السنة لغرابته.
ثم أخرج عن الحسن بن عبيد قال: سمعت ابن أبي الحارث يقول: بعث إليَّ حجاج بن الشاعر، فقال: لا تحدث بهذا الحديث إلا من سنة إلىٰ سنة. فقلت للرسول: أقرأه السلام، وقل: ربما حدث به في اليوم مرات.
قال ابن عساكر: وقد تابع إسماعيل عليه محمد بن إسماعيل بن علية قاضي دمشق.
وسرقه محمد بن الوليد بن أبان.
وقال ابن عدي: هذا الحديث سرقه ابن أبان من إسماعيل بن أبي الحارث القطان.
وسرقه منه أيضًا عبيد بن الهيثم الحلبي.
ورواه زهير، وابن عيينة، ويحيىٰ القطان، عن أبي خالد مرسلاً.
والمحفوظ عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس مرسلاً. من غير ذكر أبي مسعود». انتهىٰ
قلت: وانظر للمزيد هذه المراجع الآتي ذكرها:
١] «السلسلة الصحيحة» (١٨٧٦) للعلامة الألباني -رحمه الله-.
٢] «الطبقات الكبرىٰ» (١/ ٢٣) لابن سعد -رحمه الله-.
٣] «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨) للخطيب البغدادي -رحمه الله-.
٤] «الكامل في الضعفاء» (٦/ ٢٨٦، ٢٨٧) لابن عدي -رحمه الله-.
=

وقَدْ صَحَّ عن النبي ﷺ أنَّهُ قال: «لا تطروني كَما أطرت النصارى عيسى ابن مريم؛ فإنَّمَا أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»(١).

[اختيار النبي ﷺ مقام العبودية على مقام المُلك]

وقال الإمام أحْمَد -رَحِمهُ الله تعالَىٰ-: ثَنَا مُحمد بن الفضيل، عن عُمارة، عن أبي زُرعة قال: ولا أعلمه إلاَّ عن أبي هريرة -رَضي الله عنه-، قال: «جَلسَ جبريل -عليه السلام- إلىٰ النبي ﷺ فنظر إلىٰ السماء فإذا مَلَكٌ يَنْزل فقال جبريل -عليه السلام-: إنَّ هذا الملك ما نزل مُنذ يوم خُلِقَ قبل الساعة، فلمَّا نزل قال: يا مُحمد: أرسلني إليك رَبُّك: أَمَلكًا نبيًّا يَجعلُك أم عبدًا رسولاً، قال جبريل: تواضع لربِّك يا مُحمد، قال: «بَل عَبدًا رسولاً»(٢).

=

٥] «العلل» (٦/ ١٩٤، ١٩٥) للحافظ الدارقطني -رحمه الله-.
٦] «تاريخ دمشق» (٤/ ٨٢ – ٨٦) للحافظ ابن عساكر -رحمه الله-.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٢٦١، ٦٤٤٢) من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٣١)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٣٦٥)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (٦١٠٥) من طريق: محمد بن فضيل، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة قال: ... فذكره.
قلت: وهو حديث صحيح، وقد صحَّحه كثيرٌ من أهل العلم:
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٥٨٢): «رواه أحمد والبزار وأبو يعلىٰ، ورجال الأولين رجال الصحيح». انتهىٰ
وقال العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٠٢): «وهذا إسناد صحيح علىٰ شرط مسلم». انتهىٰ
وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لـ «مسند الإمام أحمد»، و«صحيح ابن حبان»: «إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين». انتهىٰ
وقال حسين سليم أسد محقِّق «مسند أبي يعلىٰ»: «إسناده صحيح». انتهىٰ

ومن مراسيل يَحْيَىٰ بن أبي كثير -رَحمهُ الله تعالَىٰ-، أنَّ النبي ﷺ قال: «آكلُ كما يأكل العبد، وأجلسُ كما يَجلسُ العبد، فإنَّما أنا عبد». خَرَّجه ابن سعد في طبقاته[1].

وخرَّج أيضًا من رواية أبي مَعْشَر، عن المقبري، عن عائشة -رضي الله عنها-، أنَّ النبي ﷺ قال: «أتاني مَلك فقال: إن ربَّك يَقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت نبيًّا ملكًا، وإن شئت نبيًّا عبدًا، فأشار إليَّ جبريل -عليه السلام- أن ضَع نَفْسك فقلت: نبيًّا عبدًا»، قالت: فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا ويقول: «آكلُ كما يأكل العبد، وأجلس كما يَجلس العبد»[2].

---

(١) خرَّجه ابن سعد في «الطبقات الكبرىٰ» (١/ ٣٧١) قال: أخبرنا محمد بن المقاتل الخراساني قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك قال: أخبرنا معمر، عن يحيىٰ بن أبي كثير: ... فذكره.
وأخرجه كذلك عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/ ٤١٧)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٩٧٥) من طريق: معمر، عن يحيىٰ بن أبي كثير.

(٢) خرَّجه ابن سعد في «الطبقات الكبرىٰ» (١/ ٣٨١)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (٤٩٢٠)، وعنه أبو الشيخ في «أخلاق النبي وآدبه» (٦١٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٦٨٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٧٤) كلهم من طريق أبي معشر عن سعيد المقبري عن عائشة -رضي الله عنها- به.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٩) وقال: «رواه أبو يعلىٰ، وإسناده حسن». انتهىٰ
قلت: وليس الأمر كما قال -رحمه الله-!!، بل إسناده ضعيف، لضعف أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن، وهو صاحب مناكير خاصة في سعيد المقبري.
هذا وللحديث عدة شواهد أخرىٰ، وقد رأىٰ العلامة الألباني -رحمه الله تعالىٰ- أن الحديث يبلغ بها إلىٰ درجة الصحة فأورده في «السلسلة الصحيحة» (٥٤٤).
قلت: وفيما قال -رحمه الله- نظر، فالحديث يحتاج إلىٰ وقفة طويلة كما قال شيخنا محمد عمرو عبد اللطيف -حفظه الله ورعاه-.

ومن مراسيل الزُّهري -رَحمهُ الله تعالى- قال: «بَلَغَنا أنه أتى النبيَّ ﷺ مَلَكٌ لَم يأتِهِ قَبْلَها، ومعه جبريل -عليه السلام-، فقال الْمَلَك وجبريل -عليه السلام- صامت: إنَّ رَبَّك يُخيرك بين أن تكون ملكًا أو نبيًّا عبدًا، فنظر النبيُّ ﷺ إلى جبريل -عليه السلام- كالمستأمر له، فأشار إليه أن تواضع، فقال رسول الله ﷺ: «نبيًّا عبدًا».

قال الزهري: «فزعموا أن النبي ﷺ لَم يأكل منذ قالَها متكئًا حتى فارق الدنيا»[1].

وفي «المسند»، و«كتاب الترمذي» عن أبي أمامة -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ قال:

«عَرَضَ عليَّ ربِّي -عَزَّ وَجَلَّ- ليجعل لي بَطْحاء مكة ذَهَبًا فقلتُ: لا، يا رب، ولكن أشْبَعُ يَومًا وأجوعُ يومًا»، أو قال: «ثلاثًا»، أو نَحو هذا.

«فإذا جعتُ تضرَّعت إليك وذكرتُك، وإذا شبعتُ شكرتك وحمدتك»[2].

---

(١) خرَّجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (٧٦٤)، ومن طريقه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٨١) من رواية معمر عن الزهري قال: ...فذكره.
قلت: ومراسيل الزهري ضعيفة كما هو معلوم.

(٢) خرَّجه الترمذي في «سننه» (٢٣٤٧)، و أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٥٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٠٧/ ٧٨٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٦٧، ١٠٤١٠)، وابن المبارك في «الزهد» (١٩٦)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٨١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ١٣٤) كلهم من طريق: يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- مرفوعًا به.
قال الترمذي عقب إخراجه للحديث: «هذا حديث حسن».
قلت: بل حديث ضعيف جدًا، في إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو شديد الضعف متروك الحديث كما قال جمعٌ من الأئمة مثل النسائي والدارقطني وغيرهما.
=

قال بعضُ العارفين: من ادَّعى العبودية وله مُرادٌ باقٍ فيه فهو كاذب في دعواه، إنَّما تصحُّ العبودية لِمن أفنى مراداته وقام بمراد سيده يكون اسمه ما سمي به ونعتُه ما حُلِّي به، إذا دُعي باسمه أجابَ عن العبودية فلا اسم له ولا رَسْم، ولا يُجيب إلاَّ لِمن يدعوه بعبودية سيِّده وأنشأ يقول:

يا عمرو ثاري عند زهراء ... يعرفُه السامعُ والرائي
لا تَدْعُني إلا بِيَا عبدها ... فإنه أصدقُ أسْمائي

وأنشد الآخر:

ما لي وللفقر إلى عاجز ... مثلي لا يَملك إغنائي
وإنَّما يحسنُ فقري إلى ... مالِك إسعادي وإشقائي
أتيته عجبًا بانتهاء إلى ... أبوابه إذ قلتُ مولائي
لا تَدْعُني إلا بِيَا عَبْدي ... فإنه أشرفُ أسْمائي

[ست كلمات تجمع الحكمة]

روى الحافظ أبو نُعيم -رَحمهُ الله تعالَى- في كتابه «أسماء الصحابة» من طريق الشيخ أبي سُليمان الدّاراني -رَحمهُ الله تعالَى-: حَدَّثني عَلْقَمَة بن سُويد بن الْحَارث الأزدي عن أبيه عن جدِّه يذكر وينقل عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: «جَمعتُ لك حكمتي في ست كلمات: اعمل للدنيا بمقدار بقائك فيها، واعمل للآخرة بمقدار بقائك فيها، واعمل لله بمقدار حاجتك إليه، واعمل من

=

والحديث ضعَّفه أيضًا العلامة الألباني -رحمه الله- في «ضعيف الجامع» (٣٧٠٤)، وفي «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٩٠٢).
وضعفه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في «تحقيقه لمسند أحمد» (٢٢٢٤٤).

المعصية بمقدار ما تطيق من العقوبة، ولا تسأل إلاَّ من لا يَحتاج إلى أحد، وإذا أردت أن تعصي الله فاعْصِهِ في مكان لا يَراك فيه»[1].

[دواء القلوب في خمسة أشياء]

وقال إبراهيم الخواص -رَحمهُ الله تعالَىٰ-: «دواء القلوب خَمْسَةُ أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومُجالسة الصالحين»[2].

---

(١) يقول شيخنا المحدث الجليل محمد عمرو عبد اللطيف -حفظه الله-: «الصواب في اسمه: «علقمة بن يزيد بن سويد بن الحارث الأزدي» وهو مجهول. قال الذهبي في «الميزان» (٣/ ١٠٨): «لا يُعرف، وأتىٰ بخبر منكر، فلا يُحتج به». وأقره الحافظ في «اللسان» (٤/ ١٨٨) والخبر المنكر الذي يعنيه الذهبي هو ما رواه أبو نعيم (٩/ ٢٧٩، ٢٨٠)، والبيهقي في «الزهد» (٩٦٨) وغيرهما بهذا الإسناد عن سويد قال: وفدت علىٰ رسول الله ﷺ سابع سبعة من قومي... الحديث بطوله، وفيه: «علماء، حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» زاد أبو نعيم -في رواية- والبيهقي: «وأنا أزيدكم خمسًا فتتم لكم عشرون خصلة: إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون...» الحديث.
وضعَّفه الحافظ العراقي كما في «تخريج الإحياء» (٩٨)، ورواه سهل بن عبد الله التستري الزاهد معضلاً مختصرًا كما في «الحلية» (١٠/ ١٩٢)، وهو حديث مشهور جدًّا لوقوعه في «الإحياء» وزاد من شهرته صاحب «الوصايا» سامحه الله».

(٢) يقول شيخنا المحدث الجليل محمد عمرو عبد اللطيف -حفظه الله-: «رواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص٢٨٦)، وعنه أبو نعيم (١٠/ ٣٢٧): سمعت أحمد بن علي بن جعفر يقول: سمعت الأدمي (تحرَّف عند أبي نعيم إلىٰ: الأزدي) يقول: سمعت إبراهيم الخواص يقول: ... فذكره.
والسلمي ضعيف، واتهمه بعضهم بالوضع للصوفية، وشيخه ترجمه السهمي في «تاريخ جرجان» (٩٧، ٩٨) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً. ولم أجده في موضع آخر. والأدمي هو أبو عثمان -كما في أسانيد أخرىٰ- لم أهتد إلىٰ اسمه، وبالتالي إلىٰ ترجمته وحاله».

=

[موانع إجابة الدعاء]

وقال إبراهيم بن أدْهَم -رَحمهُ الله تعالَى- في موعظته حين سألوه عن قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وإنا ندعوه فلم يستجب لنا.

فقال لَهم: «عرفتم الله فلم تطيعوه، وقرأتُم القرآن فلم تعملوا به، وعرفتم الشيطان فوافقتموه، وادَّعيتم حُبَّ رسول الله ﷺ وتركتم سُنَّته، وادَّعيتُم حُبَّ الْجَنَّة ولَم تعملوا لَها، وادَّعَيتُم خوفَ النَّار ولَم تنتهوا عن الذنوب، وقُلتم: إن الْمَوْتَ حق ولَم تستعدوا له، واشتغلتم بعيوب غيركم ولَم تنظروا إلى عيوبكم، وتأكلون رزق الله ولا تشكرون، وتدفنون أمواتكم ولا تعتبرون»(١).

=

قلت: ولم أهتدِ إليه أنا أيضًا، والله الهادي إلى الصواب.

(١) يقول شيخنا المحدث الجليل محمد عمرو عبد اللطيف -حفظه الله-: «هذه حكاية باطلة موضوعة، نبهت على بطلانها في آخر صفحتين من الجزء الأول من «البدائل» (ص١٤٨، ١٤٩) وهي عند أبي نعيم في «الحلية» (٨/ ١٥، ١٦) باختلاف يسير، وفي إسنادها: أحمد بن عبد الله الجوباري وهو وضَّاع كبير و(ممن يُضرب المثل بكذبه) كما قال الحافظ الذهبي -رحمه الله-، وأزيد هاهنا أنني لم أجدها في ترجمة ابن أدهم من «تاريخ دمشق» ولا غيره».

قلت: وفي «البدائل المستحسنة» لشيخنا محمد عمرو عبد اللطيف يقول: «هذه الحكاية باطلة بهذا الإسناد، ولم أجدها في تراجم «إبراهيم بن أدهم» إلا في «الحلية» وحدها، ولم يوردها الذهبي في «السير» ولا ابن كثير في «البداية»، وأحمد بن عبد الله الجوباري وضاع مشهور. ويُقال له أيضًا: الجويباري. قال ابن عدي: كان يضع الحديث لابن كرام على ما يريده فكان ابن كرام يخرجها من كتبه عنه. وقال ابن حبان: هو أبو علي الجويباري دجال من الدجاجلة روى عن الأئمة ألوف حديث ما حدثوا بشيء منها. وذكر له أشياء.

قال الذهبي: قلت: الجويباري ممن يضرب المثل بكذبه. (فمن طاماته) ... وذكر له طامات: زاد الحافظ في «اللسان» عن البيهقي قال: «أما الجويباري فإني أعرفه حق المعرفة بوضع الأحاديث على رسول الله ﷺ فقد وضع أكثر من ألف حديث،

=

فنسأل الله تعالىٰ أن يوفقنا لِمَا يُرضيه عنَّا برحمته، ويَختم لَنا بخير آمين، إنه أرحم الراحمين ربُّ العالمين.

وصلَّىٰ الله تعالى علىٰ خاتَم النبيين سيدنا مُحمد وآله وصحبه أجْمعين، وحَسْبِيَ اللهُ عليه توكلتُ ونعم الوكيل[1].

=

وسمعت الحاكم يقول: هو كذاب خبيث ووضع كثيرًا في فضائل الأعمال لا تحل رواية حديثه بوجه.

وقال أبو سعيد النقاش: لا نعرف أحدًا أكثر وضعًا منه. وقال ابن حبان في ترجمة «إسحاق بن نجيح الملطي» تعلق به أحمد بن عبد الله الجويباري فكان يروي عنه ما وضعه إسحاق ويضع عليه ما لم يضع أيضًا». انتهىٰ

(١) وبهذا القدر نكون قد انتهينا من تحقيق هذه الرسالة المباركة، والتعليق عليها، وهي رسالة جليلة بحق، ونسأل الله -تبارك وتعالىٰ- أن يجعل هذا الجهد في ميزان الحسنات، وأن يتجاوز عن عظيم السيئات، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



الفهارس العلمية

أولاً: فهرس الأحاديث النبوية.

ثانيًا: فهرس الآثار.

ثالثًا: فهرس الموضوعات.



أولاً: فهرس الأحاديث النبوية

ثانيًا: فهرس الآثار



ثالثًا: فهرس الموضوعات

مكتب حنين للصف التصويري والإعداد الفني
٠١٠٣٠٧٣٤٥٣ -



